أ.د. عماد الدين خليل

أحاديث نبويّة تطلّ على العصر

أحاديث نبويّة

تطلّ على العصر

• الموضوع: دراسات إسلامية
• العنوان: أحاديث نبوية تطل على العصر
• تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ISBN 978-614-415-306-2

ISBN 978-614-415-306-2
9 786144 153062

• الطباعة والتجليد: المطبعة العربية - بيروت
• الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
• القياس: 15×22 / عدد الصفحات: 280 / الوزن: 370 غ

دار ابن كثير
DAR IBN KATHEER

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

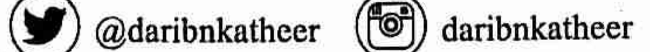

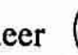
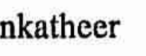

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

أ.د. عماد الدين خليل

أحاديث نبويّة تطلّ على العصر

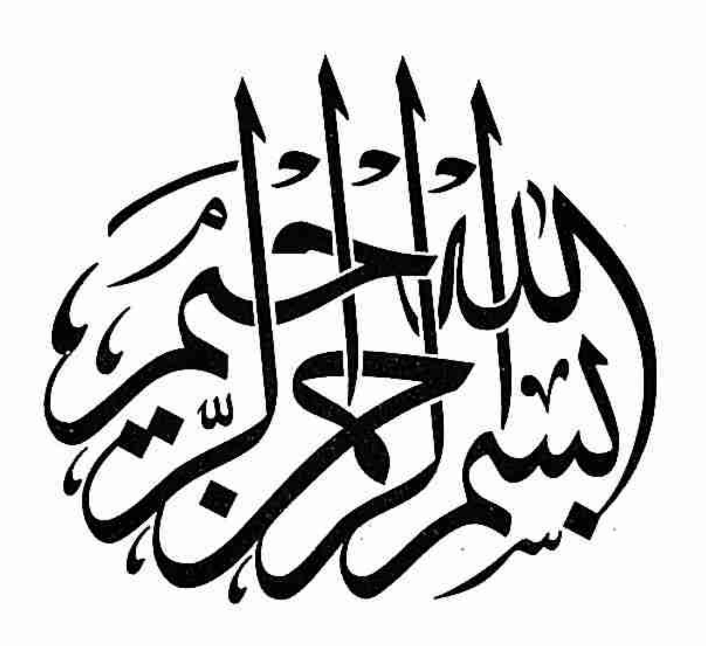
بسم الله الرحمن الرحيم

وأي واحد من أحاديثك الشريفة لا يطلّ على العصر يا رسول الله؟ إنها برؤيتها النبوية الثاقبة تجتاز الأماكن والعصور لكي تطلّ بتعاليمها التي تعرف كيف تتعامل مع الإنسان وكيف تبنيه، على كل زمن وكل مكان... ويخسأ أولئك الذين يسمّون أنفسهم بـ(التاريخانيين) الذين يسعون إلى اعتقال كلمات الله وتعاليم رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) في حيّز التاريخ!! فها هي ذي أحاديثك تقطع ألسنتهم وتمضي لكي تدلّ الحيارى والضائعين على الصراط، الذي تتفرق دونه، وتميل، وتعوج، وتتساقط السبل البشرية الضالة التي هي أسرت نفسها في حيّز الزمن والمكان... أي في الجغرافيا والتاريخ... ومضى التاريخ، بإرادة الله ﷻ، لكي يطوي كلَّ أضاليلهم رافعاً شعار: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

هذه جملة من الأحاديث النبوية الموثقة، كما أخرجها المحدّث الكبير (البخاري) في صحيحه... اختيرت من بين العشرات والمئات والألوف لكي تؤكد هذا الذي ذهبنا إليه... إنها خطاب مؤثّر موجه للإنسان في كل زمن ومكان، من أجل أن يفيء

إلى خيمة الله، ويحيا الحياة المتوازنة السعيدة، المتوحدة، التي أرادها له هذا الدين، والتي بدونها لن تكون سوى التعاسة والنكد والتمزّق والشقاء: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧].

وها هو منطق الإحصائيات يحكي في القرن الحادي والعشرين عما يشهده القوم هناك، ممن رفضوا الإيمان بالله، من ضيق ونكد وتعاسة وفرار إلى المغيِّبات... والانتحار... فثمة إحصائية تقول أن عشرة بالمائة من الشعب الأمريكي تعاني من الاكتئاب وتهرب منه إلى المغيِّبات والانتحار... وأن اليابان خصصت ثلاثين مليار دولار عام (٢٠١١م) لملاحقة حالات الاكتئاب المركَّز والانتحار في الساحة اليابانية... ومعروف للجميع مدى تقدّم دولة كالسويد على المستوى المدني، وكيف أن ذلك جاء متزامناً مع تزايد حالات الانتحار في ديارها بشكل قياسي.

يجب ألا يخدعنا... ويعتّم علينا الرؤية الصائبة، هذا الديكور الخارجي الجميل من العمران المادي والخدمات المدهشة، والتقدم العلمي في كل مجالات الحياة... إلا في المجال الأساسي... المجال القاعدة الذي تبنى عليه سعادة الإنسان أو تعاسته وشقائه: التقدّم الروحي... فها هنا يغيب هذا البعد لكي لا يتبقى ثمة إلا القشور، ولا يحكم سلوك الإنسان إلا الشيطان، الذي طالما حذرتنا منه

كـلـمـات الله ورسـولـه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٢].

وها هو الفساد الكبير الذي يعم كرتنا الأرضية من أقصاها إلى أقصاها بسبب حكم الشيطان: فساد في الأخلاق... فساد في العلاقات... فساد في الاقتصاد... فساد في السياسة... فساد في التربية... فساد في المناخ... تلوّث بيئي يؤذن بعد قرن أو قرنين، ربما، بدمار الحياة البشرية، واختناقها، واستحالة استمرارها بكل المعايير: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ها نحن إذاً وقد اخترنا عدداً محدوداً من أحاديث رسول الله ﷺ نجد أنفسنا قبالة الحياة التي جاء هذا المبعوث النبوي الأخير لكي يبنيها، ويدعونا جيلاً بعد جيل إلى بنائها والتشبُّث بمفاهيمها وقيمها... وإلا فهو الضياع... وهو تحوّلنا ـ كما نشهد عبر القرون الأخيرة ـ إلى قصعة يولم عليها المولمون من الشرق والغرب... ومن كل مكان...

رحلة طيبة مع أحاديث رسول الله ﷺ وهو يحكي عن الدين الواحد، وعن حماية دم الآخر، عن المجتمع السعيد، عن النبيّ الإنسان، عن التيسير والحنيفية السمحاء التي ترفض الغلوّ التشدّد... عن السخاء الإلهي والرحمة والتوحيد والشفاعة... عن احترام إنسانية الإنسان وحمايته... عن نبض الحياة... عن

العلاقات الأسرية الحميمة... عن الرفق بالحيوان... عن (الإتيكيت) في تناول الطعام... عن الحرب على الوثنية والكفاح ضد الظلم... عن أداة الشيطان... عن السماحة في التعامل بين الناس... عن الوساوس التي تحيك في الصدور... عن تحفيز العقل ودعوته للعمل في قلب الأرض... عن الطب النفسي وإحياء القلوب... عن الدعوة للحذر... عن الحرب على الخرافة والتزييف والتقليد الأعمى... عن الأسلوب المرن في التعامل التربوي... عن لعنة الكذب على رسول الله ﷺ... عن الموازنات الإلهية... عن مجابهة الإغراء... عن المخنثين والمترجلات... عن دين المحبة... عن الكرم الإلهي... عن دين التناصح... عن تفاهة الحياة الدنيا وانصرامها السريع... عن أخوّة الإنسان للإنسان بغض النظر عن انتمائه الديني... عن الثورة على الطواغيت والأرباب... عن حماية الطفولة... عن الرؤية الثاقبة للحياة الدنيا... عن التكافل الاجتماعي... عن تلبيس الشيطان ومكره... عن الكلمة الطيبة... عن الانتحار وهدر الحياة... عن مسؤولية الأسرة إزاء الأبناء... عن الصداقة الحميمة بين الإنسان والعالم والكون... عن معجزة القرآن... عن تصاغر الحياة الدنيا وخرافة البقاء... عن التحذير من التفكّر في ذات الله والمضيّ في التفكير في آلائه... عن تجاوز المرحلي العابر إلى الممتد البعيد... عن مجابهة (الأنا)... عن اغتنام الفرص العابرة قبل فوات الأوان... عن تجاوز الخندق الذي يفصل بين العقل والقلب والممارسة... عن مداد العلماء

الذي يوزن يوم القيامة بدم الشهداء... عن الفرص المفتوحة حتى للخدم والعبيد... عن الوفاق بين التعليم والتجربة... عن الرؤية الشمولية التي تلمّ الوجهين معاً: المغيَّب والمنظور، والأخلاقي والمصلحي... عن ضرورة المشاركة في تشييع الجنائز وزيارة القبور... عن دور الأخلاق في النهوض والانهيار... عن الإنسان في قوته وضعفه...

إنها والحق يقال رحلة طيبة في ظلال كلمات رسول الله ﷺ وتعاليمه، التي ـ مرة ثانية وثالثة وعاشرة ـ تخترق حدود الجغرافيا والتاريخ لكي تتعامل مع كل زمن وكل مكان...

ومن الله سبحانه وحده التوفيق

الموصل في ٢٠١٦/٥/٧م

أ. د. عماد الدين خليل

الدين الواحد

(عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»).

وإلى أن ينفخ في الصور... وعلى مدى تقلّبات التاريخ... ورغم كل السدود الخبيثة، التي يسعى إلى وضعها محترفو الأديان لتحقيق مصلحة أو الاستئثار بمكسب... سيظلّ دين الله واحداً... وسيظلّ الأنبياء كافة إخوة... وسيظل محمد بن عبد الله أخاً لعيس بن مريم... يتغاير الآباء والأمهات، ويبقى الدين واحداً... مصدره واحد هو الله ﷻ، جلّ في علاه، وهدفه واحد هو شهادة **(لا إله إلا الله)**، وقيادة البشرية عبر الصراط الذي تميل دونه السبل، وتعوجّ، وتتفرق... ويظل هو وحده القدير على منح الإنسان توحّده المرتجى، وتوازنه المأمول، وسعادته الحقيقية التي ضيّعتها الأديان المحرّفة، والعقائد الباطلة، والخرافات والأضاليل...

ها هنا يؤكد رسول الله ﷺ أنه أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة... وكأنه يرى بثاقب رؤيته ما تعرّضت وستتعرض له

(النصرانية) ومؤسسها عيسى عليه السلام من تزييف وتحريف... حيث أمطرت الخرافات والأساطير والضلالات على (إنجيله) الأصيل، عبر جملة من الأناجيل المصطنعة، التي دسّها عليه كبار أتباعه بعد مرور عشرات السنين على نبوته، فجعلوا فيها الأبيض أسوداً، والمستقيم معوّجاً... والدعوة النقية الواضحة شبكة من التعقيدات والأغاميض والألغاز والطقوس المصطنعة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

إنجيل بولس... إنجيل متي... إنجيل يوحنا... إنجيل مرقص تحلّ بادعاءات الوضّاعين من مزوِّري الأديان، محل إنجيل النصرانية الأصيل، الذي طالما أكد على مجيء النبي الأخير: محمد بن عبد الله، لكي يتمِّم البناء ويضع لمساته الأخيرة... ومن أجل تأكيد هذا التزييف الخطير للعقيدة النصرانية الأصيلة، والقائمة على التوحيد، الذي هو قاعدة كل الأديان القادمة من السماء. أصدر بابا الفاتيكان ومن ورائه المجامع الكنسية أمراً بإعدام الإنجيل الوحيد الذي يتحدث بالحق، ويقول كلمته واضحة صريحة بخصوص وحدة الأديان، ومجيء فاتحها محمد بن عبد الله، في عشرات المواضع: إنجيل برنابا!!

ومع ذلك فقد أُفلتت من قبضة الوضّاعين جملة من التأكيدات على هذه الحقيقة، فتسرّبت رغماً عنهم، إلى شرايين الأناجيل الأربعة وتموضعت هناك... يقول عيسى عليه السلام في إنجيل يوحنا (٢٦ ـ ١٥:٢٣): (... لا بدّ أن تتمَّ الكلمة التي في

الناموس... إنهم أبغضوني مجاناً، فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم. فهو شهيد عليّ وأنتم أيضاً. لأنكم قديماً كنتم معي. في هذا قلت لكم لكيما تشكّوا). والمنحمنا بالسريانية تعني محمداً.

وجاء في إنجيل متي (٤٣ ـ ٢١:٤٢): (الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره). وجاء في إنجيل يوحنا (١٣ ـ ١٦:١٢): (قال المسيح للحواريين: إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا، وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم عن نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية).

ولطالما أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة وقال بأن أهل الكتاب المحرِّفين، يعرفون ـ رغم ذلك، هذه الحقيقة التي لا مراء فيها: أن رسول الله ﷺ الأخير آتٍ لكي يتمّم البناء ويمضي في طريق النبوات إلى غايته الأخيرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ومع ذلك كله، فإنهم يصرّون على موقفهم الخاطئ هذا...

ذلك أنهم أبناء أولئك التحريفيين الكبار، الذين بدؤوا المهمة الباطلة، بوضعهم الأناجيل الأربعة، وتلفيقها على لسان المسيح عليه السلام.

إن هذا الالتواء النفسي يذكّرني بموقف زعيم إحدى الكنائس في الموصل قبل عدة عقود، عندما اختار أتباعه أن يضعوا في أعلى كنيسة جديدة لهم الآية الكريمة التي تمجّد أمَّ المسيح مريم عليها السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، فما كان منه وقد انتابته موجة من الغضب إلا أن يأمر بإزالتها!!

ويُدهش الإنسان لما يقول المستشرق الفرنسي المعروف (إميل درمنغم) في كتابه عن (حياة محمد): كيف يعلن النصارى الحرب والكراهية ضد إخوانهم المسلمين الذين يرفع كتابهم هذا التقييم لأمِّ نبيِّهم، وكيف ينحازون - بالمقابل - إلى خصومهم اليهود، الذين دمغوا في عهدهم القديم مريم بأقصى درجات السوء... سوى أنه التقليد الملتوي القادم من عصور الآباء الكبار واضعي الأناجيل المحرَّفة، ومصدِّري حكم الإعدام على إنجيل برنابا الأصيل...

وتبرز من وراء هذا الركام من الأباطيل والالتواءات كلمات رسول الله ﷺ من أنه أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، وأن الأنبياء إخوة، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد... قنديلاً أخضر ينير السبيل للمدلجين في الظلمات...

دم الآخر...!!

(عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: **«من قتل معاهَداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»**)!

وحشود أخرى من أحاديث رسول الله ﷺ تؤكد المعنى نفسه: «من آذى ذمياً فقد آذاني»، «أوصيكم بأهل ذمتي»... و... و...

ها هنا يحذر رسول الله ﷺ من القتل المجاني الذي استشرى في زمننا البئيس هذا، ويعلن حرمان ممارسيه من رائحة الجنة التي تنتشر عبر مسافات يصعب حسابها على الحاسبين.

إنه الاحترام المطلق لإنسانية الإنسان، معاهَداً كان أم ذمِّياً، والتنديد الصارم بقتله، أو انتهاك حريته، أو التعدي على حرماته.

وإن العهود التي منحها رسول الله ﷺ لليهود والنصارى في جزيرة العرب وأطرافها لتؤكد المعنى نفسه بفضائها المفتوح، ونبضها الإنساني، وسعيها المكافح لحماية دم غير المسلم أن يُسفك عبثاً!! «... ولنصارى نجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبيّ رسول الله على أنفسهم، وملّتهم وأرضهم وأموالهم

وغائبهم وشاهدهم وبِيَعِهم وصلواتهم، لا يغيِّروا أسقفاً عن أسقفيته ولا راهباً عن رهبانيته ولا واقفاً عن وقفانيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير... ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين... ولا يؤاخَذ أحد منهم بظلم آخر. وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي ﷺ أبداً حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم»!.

وبعث إلى يهود بني جنبة بمقنا القريبة من أيلة على خليج العقبة: «أما بعد، فقد نزل عليّ رسلكم راجعين إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه... وإن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم (مراكبكم) وربع ما اغتزل نساؤكم، وإنكم برئتم ـ بعدُ ـ من كل جزية أو سخرة. فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم... وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله...». وكتب ليهود بني غاديا «... إن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء». وكتب ليهود أهل جرباء وأذرح: «أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين»...

نقارن هذا بموقف أدعياء الحرية، والديمقراطية، وحقوق

الإنسان، وملاحقة الإرهاب، من غير المسلمين عبر التاريخ البشري كلّه... ونحن نتذكر ما فعلوه بالدم الإنساني من هدر عام، وقتل بالجملة، وتصفية شاملة يختلط في عنفوانها الوحشي أولئك الذين يستحقون القتل وغيرهم ممن لا يستحقون...

نتذكر مجازر الكنيسة الإسبانية ضد مسلمي الأندلس المهزومين، حيث أتت على ما يزيد على المليوني مسلم قتلاً وتنصيراً وتهجيراً من الأرض... ونتذكر ما فعله الاستعمار القديم بشعوب العالم الإسلامي من قتل ملايين الناس دفاعاً عن استلابهم للأرض واغتصابهم خيراتها... ونتذكر عمليات الترحيل الجماعي الرهيب للعبيد الأفارقة إلى الأمريكيتين، وسط ظروف يعجز القلم عن التعبير عنها، فيما أتى على مئات الآلاف منهم بالموت المحقق، حتى قبل وصولهم إلى الدنيا الجديدة، وفيما حدثنا عنه (أليكس هيلي) في كتابه المعروف (جذور)... ونتذكر ما فعله غزاة أمريكا الأوائل من تصفيتهم الجسدية بالقتل والتسميم لمائة وعشرين مليوناً من مواطنيها الأصليين من الهنود الحمر...

بل إننا نتذكر، قبل هذا وذاك، ما فعلته ولا تزال أمريكا، سيدة حقوق الإنسان في هذا العالم، مع الشعوب المستضعفة التي ابتليت بويلاتها: في اليابان وكوريا وفيتنام أو دول أمريكا اللاتينية، وفي الصومال وأفغانستان والعراق... وهذه الأخيرة التي تلقت عبر حرب (٢٠٠٣) (التحريرية)!! ثمانين ألف طن من اليورانيوم

المخصب الذي لا تزال ذراري العراقيين تئن من ويلاته، فيموت منهم عشرات الآلاف في كل عام...

فمن الذي ضمن الدم البشري من الهدر؟ نحن أم هم؟ ومن الذي انتهك إنسانية الإنسان على مدى التاريخ البشري: نحن أم هم؟!.

الويل الويل لمن يقول بعد هذا كلّه أن الغربيين هم رعاة حقوق الإنسان وحماة الدم البشري من الهدر، أولئك الذين يسقطون مصائبهم على الشعوب المستضعفة ويتهمونها بالإرهاب واغتيال حقوق الإنسان...

فها هو رسول الله ﷺ في جملة أخرى من الأحاديث الشريفة يؤكد المعنى نفسه: احترام الدم البشري من السفك، والتنديد بكل من تسوّل له نفسه العبث بحرمته (فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»)، (وعن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «**أول ما يقضى بين الناس في الدماء**»).

ويبلغ الأمر من احترام إنسانية الإنسان، أيّاً كان موقعه من العقائد والأديان؛ أن يصدر النبي ﷺ أمره باجتناب الوجه في القتال بين المسلم وخصومه (فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه**»)... فأيُّ تقدير هذا لإنسانية الإنسان على إطلاقه، وأيُّ فارق شاسع بين هذا الأسلوب العالي الشفاف في التعامل مع الآخر وبين الأسلوب الغربي والأمريكي (المتحضّر)، الذي

يخلط العظم باللحم، والوجه بالأقدام، وهو يضرب خصومه بأقصى درجات الوحشية واللامبالاة؟!

تحت هذه المظلة المتحكمة في حماية الدم البشري من الهدر المجاني، وقبالة القتل اليومي لملايين الناس بأكثر الأساليب همجية ووحشية على يد أدعياء ملاحقة الإرهاب في العالم... يجد المرء نفسه قبالة فارق كبير وبَوْن شاسع، بين تعاليم السماء إلى الأرض وبين طواغيت الأرض وأربابها الزائفين...

فمن الذي يحمي الدم البشري من الهدر... نحن أم هم؟!

النبي الإنسان

(عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**)!!

يا الله... ألى هذا الحدّ يا رسول الله يكون تخوّفك من الإطراء، وتأكيد عبوديتك المطلقة لله؟! أيُّ تجرّد هذا عن أعلى صنوف الإغراء، الذي يأخذ بخناق الزعماء (الكبار) في هذا العالم، فيميزهم عن الآخرين، ويرفعهم درجات يستعصي حسابها على الحاسبين؟!

ألى هذا الحد يكون رفضك لكل ما يمسّ بشرية الإنسان، مهما دق واستعصى على الإمساك، وأفلت بقدرته الأسطورية من محاولة شكمه والسيطرة عليه؟!

«فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»... وبذلك... بهذه القدرة المدهشة على استئصال التميُّز الذي مضى بالآخرين إلى أعتاب الألوهية... بل إلى الألوهية نفسها، كما حدث مع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. يعلن رسول الله ﷺ عبوديته لله، تلك التي تقطع الطريق

على أيٍّ ادّعاء قد يمارسه التحريفيون وعشاق التأليه الباطل لأنبيائهم وزعمائهم.

الطواغيت تسكرهم لحظة الانتصار، وتصعّر خدودهم للناس... بل إنها ـ أحياناً ـ تُفقدهم التوازن...

هتلر لحظة سماعه نبأ دخول قواته باريس راح يرقص رغم ما عُرف عنه من وقار وجبروت...

نابليون بونابرت عندما انتصر على خصومه الألمان في معركة ينّا عام (١٨٠٧م) ودخل برلين فاتحاً... وهو يمتطي صهوة حصانه الأشهب، دفع بصدره إلى الأمام وصعّر خدّه ورفع جبهته إلى فوق... كأنه يريد أن يقول: ها أنا ذا البطل العظيم الذي سحق أعتى خصومه، وألحق بالعسكرية الألمانية التي لا تقهر هزيمة ساحقة... كان يرافقه يومذاك ـ ولحسن الحظ ـ رسام (بورتريت) فرنسي فصوّره لحظة دخوله تلك... ولا تزال الصورة معروضة في متحف اللوفر بباريس...

كيف كان دخول رسول الله ﷺ مكة فاتحاً بعد أن انتصر على أعتى خصومه وأشدهم مراساً: قريش التي لم تألُ جهداً في اعتماد أي أسلوب للقضاء عليه وسحق دعوته...

تحدثنا كتب التواريخ كيف أنه كان يمتطي لدى دخول مكة ناقته القصواء، ومن ورائه جيوش المسلمين... وكيف أنه طأطأ رأسه الشريف وظل يطأطئها حتى مسّت لحيته ظهر الناقة خجلاً

من الله سبحانه وتعالى الذي منحه هذا النصر، واعترافاً بفضله عليه... وتواضعاً لجلاله سبحانه وتعالى...

لم يحاول ـ وحاشاه ـ أن يرفع جبهته عالياً، لأنه ما خطر على باله لحظة، أن يقول لجماهير الناس من حوله: انظروا إليّ ها أنا ذا الفاتح العظيم...

إنه الفارق الكبير بين طواغيت الأرض وبين الأنبياء والقدّيسين... بين بونابرت وهتلر وبين الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام).

وبموازاة إغراء البطولة وادّعاء العظمة، هنالك إغراء لا يقل عنه ضغطاً على النفس البشرية وسَوْقها في الاتجاه الذي يريد... إنه إغراء التفرّد والقداسة، الذي أسر آلاف الزعماء والطواغيت والأدعياء... ولكنه مع رسول الله ﷺ يتراجع صاغراً مخلِّياً الطريق للنبي الإنسان، الذي رفض حتى اللحظة الأخيرة أن يستعلي على جماهير أمته بأيِّ معيار من المعايير، رغم أن كل الظروف والمعطيات كانت ترفعه إلى سماوات التفرّد والقداسة.

كان يقول: «**إني أتزوج النساء، وآكل اللحم، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر، فمن رغب عن سنّتي فليس مني**»... وناداه رجل: يا سيدنا وابن سيدنا، فقال: «**لا يستهوينّكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**».

وكان أصحابه إذا رأوه قادماً عليهم لم يقوموا له، وهو أحب

الناس إليهم، لما يعرفون من كراهيته لقيامهم. وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه، ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه إلى السير بجانبه... رآه رجل فارتعد، فقال: هوّن عليك فاني لست ملكاً، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد.

ما كان يغلق دونه الأبواب، ولا يُغدى عليه بأواني الطعام، وكان من أراد مقابلته يقابله...

ثمّة ـ أخيراً ـ حادثة كسوف الشمس يوم تشييع ابنه إبراهيم عليه السلام... ظن بعض المشيعين أنها انكسفت حزناً على وفاة ابن رسول الله ﷺ، وكان بمقدور رسول الله ﷺ أن يصمت كي يوحي لأصحابه بأن الظواهر الكونية تقدّسه وتشاطره العزاء... ولكنه ردّ بالحزم، الذي يستهدف إزالة أية شبهة في هذا الاتجاه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد من الناس»!... ﷺ...

ولطالما رفع القرآن الكريم خطابه لرسول الله ﷺ مؤكداً دوره النبوي الخطير في أنه النبيُّ البشر... مثل سائر الناس... لا يعلو عليهم إلا بمقدار ما يقدمه لهم من جهد مكافح في سبيل وحدانية الله جلّ في علاه، وإنقاذ البشرية من السقوط في مهاوي الشرك والوثنية، والتخبُّط في أباطيل الكهنة والمرتزقة وأدعياء الدين: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

بل إن الأنبياء جميعاً، أولئك الذين سبقوا رسول الله،

مبعوثون إلى أقوامهم لكي يقودوهم إلى الصراط، ويمنحوهم السعادة والتوحد والاطمئنان والرضا... كانوا جميعاً (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، يؤكدون المعنى نفسه المرة تلو المرة: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١]، ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]...

لقد عرفها رسول الله ﷺ... عرف أن النصارى بإطرائهم ابن مريم انزلقوا بعيداً خطوة بعد خطوة، ودرجة بعد درجة، إلى أن أوصلوه مقام الربوبية وحاشاه... ولا تزال فِرَقهم كافة... كاثوليكية وأرثذوكسية وبروتستانتية تُجمع على اعتباره (ابن الله) وحاشا لله...

من أجل ذلك سينزل بينهم عيسى عليه السلام في آخر الزمن، لكي يؤكد لهم بشريّته ويعدّل ما فطروا عليه من شرك قبيح...

عليك أفضل الصلاة والسلام يا رسول الله وأنت تعلن مجابهتك الصارمة لإغراء المديح والإطراء... وعبوديتك المطلقة لله جلّ في علاه!!

في الإتيكيت النبوي

كثيرون من أتباع هذا الدين لا يملكون شيئاً من الذوق ورهافة الإحساس، والتعامل مع مفردات الحياة اليومية بأقصى درجات الحساسية والجمال... فتراهم ينقضّون على ولائم الطعام بنهم عجيب ويضربون بأيديهم في صحافه ذات اليمين وذات الشمال... ويتحدثون بصوت عال فاتحين أفواههم على مداها لكي يتساقط منها كم كبير من البقايا المقززة على الطعام... بل ويتدافعون بالمناكب من أجل الحصول على لقمة أفضل بعيداً عن أيِّ قدر من الذوق والاحتشام!

ولنستمع إلى رسولنا المعلم الكبير ﷺ وهو يقول بخصوص (إتيكيت) الطعام، الذي يتباهى الغربيون بأنهم بلغوا القمة في مطالبه، بينما نحن لا نزال نتحرك عند السفوح (فعن عمر بن أبي سلمة، قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: ـ **«يا غلام سمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»**. فما زالت تلك طعمتي بعد).

وهذا غلام يتلقى تعليمه من رسول الله ﷺ بخصوص تقاليد

الأكل الحضارية... ألّا تطيش يداه في الصحفة، وأن يأكل بيمينه ومما يليه، فيلتزم التعليم، ويظل على مدى حياته لا يأكل إلا وفق (الإتيكيت) الذي تعلّمه من لدن رسول الله ﷺ.

فما بال كبار القوم في ديارنا، ومناسباتنا، ودعواتنا، يضربون بهذه التعاليم عرض الحائط وينقضّون على موائد الطعام كالوحوش الكاسرة من أجل افتراس اللقمة الأكثر دسماً... بغضّ النظر عمن يقف إلى جوارهم ينتظر فرصته لكي يمدّ يديه إلى الطعام؟!

بل إن الرسول المعلم ﷺ يمضي خطوات أبعد من إتيكيت الطعام إلى إتيكيت العلاقة الجنسية بين الرجل وزوجته... لله ما أشد حساسيتك المرهفة يا رسول الله وأنت تدلي بتعاليمك في هذا المجال ذي الخصوصية البالغة (فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً»**. وعنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحدّ المُغيبة وتمشط الشعثة»**). (وعن جابر قال: نهى النبي ﷺ أن يطرق أهله ليلاً) (وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله»**)!!

إنه الجدل الأبدي بين البداوة والحضارة... بين الخشونة والرقة... بين الغلظة والرهافة... في التعامل بين الزوج وزوجته... ولكن ما أكثر المسلمين الذين يجيئون ليلاً شعثاً غبراً، فيدخلون

على زوجاتهم، ويقضون حاجاتهم منهن دونما أيٍّ قدر من الحساسية تجاه مشاعر المرأة، ورقتها وأنوثتها... ودونما أي اعتبار للديكور الجميل الذي يجب أن تحاط به تلك العلاقة الخاصة والحميمة بين الرجل وزوجته...

ها هنا، كما هناك في ساحة الطعام، يضع رسولنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) أصول (إتيكيت) في التعامل الحساس والمرهف والحضاري مع الحالتين...

ولطالما أمسَكَنا الغربيون وهم يرون هذا التناقض الحاد بين التعاليم والسلوك، من أعناقنا، وراحوا يدينون الحياة الإسلامية بالتخلف والخشونة وانعدام الذوق... طعاماً وممارسة جنسية... متناسين أن هناك في صميم الحياة الإسلامية قطاعات كبيرة، وكبيرة جداً، من ذوي الالتزام بإتيكيت التعامل مع الحالتين كما أمرهم بها رسول الله ﷺ... بل كما أكدتها آيات القرآن الكريم القاطعة في هذا المجال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٢].

والحق أن تعامل الغربيين مع الطعام والجنس، إذا كان في ظاهره يلتزم إتيكيتاً محدداً، فإنه في باطنه مترع بالفحش والقذارة، التي يأنف منها أشد المسلمين بعداً عن مطالب هذا الدين...

ولقد رأيت بأمِّ عيني، مباشرة أو على شاشات التلفاز، ما وراء الديكور الخارجي للممارستين معاً... فرأيت الحالات التي يأنف الإنسان حتى من تسميتها والإشارة إليها لأنها تبلغ في إسفافها حدّاً تربأ الكلمات أن تحمله للآخرين...

كنت ألحظ ـ على سبيل المثال ـ كيف يسدّ الغربي فتحة حوض الماء بالسداد المعروف، ثم ما يلبث أن يملأه ويبدأ بغسل وجهه منه، رغم أنه قبل لحظات قد تلقى من المخاط والبصاق الشيء الكثير... وكنت أرى بأمِّ عيني كل الغربيين على الإطلاق وهم يمارسون لعب كرة السلة أو الطائرة فإذا بكتل مقززة من الشعر الكثيف تبرز من تحت آباطهم... وكنت أراهم كيف يلتهمون الطعام النيئ الذي لم تمسسه النار... بل كيف يقبلون بنهم على أطباق الحشرات المقلية التي يأنف منها أشد الناس خشونة وبداوة...

بل إن ممارستهم الجنسية لتصل حداً يتجاوزون به كل معايير القيم الخلقية والجمالية معاً... فيلجؤون إلى الشذوذ الجنسي... والزنى بالأطفال... ويقرُّون الزواج المثليّ في برلماناتهم وكنائسهم رغم ما في ذلك من تناقض حاد مع مطالب دينهم وإنسانيتهم...

إنه الديكور الخارجي المضلل، وليس وراءه سوى البشاعة والخراب...

ها هنا في ديننا يجد الإنسان من يحميه!!

أيها الأدعياء الكذبة... أيها المنادون زوراً بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وملاحقة الإرهاب... أيها القتلة... يا من ذبحتم مئات الآلاف من اليابانيين بقنبلتين ذريتين... وملايين الفيتناميين في محاولتكم تأكيد قدرتكم على حكم العالم... ومائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين، لكي تستأثروا بالأرض... يا من أسقطتم على العراق وأفغانستان عشرات الآلاف من اليورانيوم المخصب فحكمتم على ذراريهم بالإعدام لعشرات السنين القادمة ومئاتها...

يا من بدّلتم دين المسيح وحوّلتموه إلى جملة من الأساطير والضلالات... يا من خضعتم للعلق الصهيوني، وحنيتم له رؤوسكم، فأمسككم من قرونكم وساقكم إلى حيث يريد هو، لا ما تريده شعوبكم... أيها المتباهون بحماية الحيوان، وأنتم تذبحون يومياً عشرات الآلاف من بني الإنسان متخذين من (الهوبزية) دستوراً لكم: اقتل واقتل واقتل حتى تؤكد سيطرتك المطلقة على العالم!!

ها هنا في ديننا... في تعاليم كتابنا... وتوصيات رسولنا

العظيم (عليه أفضل الصلاة والسلام) يجد الإنسان من يحميه من القتل، ويحترم إنسانيته، ويكفَّه عن قتل نفسه!!

ففي ظلال تلك الرؤية المضللة التي تستهين بالدم الإنساني استشرَتْ في ديارها ذاتها ظاهرة الانتحار الفردي والجماعي... ومضت لكي تشكّل مساحات واسعة ومخيفة في الحياة الغربية... حتى إن آخر الإحصائيات التي أعلنت في عام (٢٠١١م) تقول بأن عشرة بالمائة من الأمريكيين يعانون من الاكتئاب والهروب إلى المغيّبات... والانتحار... وأن اليابان خصّصت ثلاثين مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في ديارها... وفي البلدان المتقدمة جداً في أوربا تزداد بشكل عكسي حالات الانتحار... وثمّة أفلام عديدة عرضتها شاشات التلفاز عن عمليات الانتحار الجماعي التي مارسها ولا يزال، أدعياء الأديان الجديدة في الأمريكيتين.

ها هنا... في ديننا... في تعاليم كتابنا وتوصيات رسولنا العظيم ﷺ يجد الإنسان من يحميه من القتل، ويحترم إنسانيته، ويكفّه عن قتل نفسه تحت أيّ ذريعة كانت... على الإطلاق...

(فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«من تردّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلّداً فيها أبداً. ومن تحسّى سُمّاً فقتل نفسه، فسُمُّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً. ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً»**)...

فهل ثمّة وعيدٌ أشدّ من هذا لمن يلجأ إلى الانتحار فيقتل

نفسه؟! إنه يجعل الإنسان ـ يتردد ألف مرة قبل أن يقدم على هذه الفعلة الشنعاء، التي ستصيبه باللعنة والعذاب إلى أبد الآبدين... ورسول الله ﷺ يقول: «**الإنسان بناء الله في الأرض ملعون من هدم بنيانه**»...

ومن أجل ذلك تضاءلت حالات الانتحار في الديار الإسلامية على مدى تاريخنا الطويل... بل إنها كادت أن تنعدم في مساحات كبيرة جداً من هذا التاريخ... في الوقت الذي راحت تستشري كالنار في الهشيم، في ديار الآخرين، فتفترس الكثير منهم، استهانة بهذه المنحة المقدسة القادمة من لدن الله جلّ في علاه...

ويمضي هذا الدين في التأسيس لحماية الإنسان... حتى بعد موته... أيّاً كان انتماؤه الديني أو المذهبي... مسلماً أو غير مسلم... الإنسان على إطلاقه... (فعن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضَوْا إلى ما قدّموا**»)!! ثم يمضي خطوة أخرى في تأكيده لاحترام الإنسان في أهم قضاياه على الإطلاق: الحياة واستمرارية الحياة... فيأمر أتباعه ألا يتمنى أحدهم الموت، لأن ذلك سيحرمه من كسب المزيد من الأجر بعمله الصالح وتجاوز سيئاته بالتوبة إلى الله (فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يتمنينَّ أحدكم الموت؛ إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعلع يستعتب**»)!!

بل إن هذا الاحترام الفريد لإنسانية الإنسان ووضع ذلك

السياج المتين ضد استباحة دمه وقتله، يمضي لكي يطال عالم الحيوان، الذي طالما تباهى الغربيون بتدليله وتمريضه وإطعامه وحمايته من كل ما يمسّه بسوء، في الوقت الذي يستبيحون به إهانة وقتل وتصفية خصومهم من بني الإنسان بالآلاف والملايين.

وكلنا نذكر أحاديث الرسول العديدة حول ضرورة الاهتمام بالحيوان، ورعايته، ومتابعة مطالبه الضرورية، وتمكينه من مواصلة الحياة... وكيف أن امرأة دخلت النار بسبب هرة ساقتها إلى الموت... وأن رجلاً فاجراً دخل الجنة لأنه وجد كلباً يعاني من العطش الشديد، فما كان منه الا أن يجعل من نعله وعاء يمتح له به من ماء البئر فيسقيه ويردّه إلى الحياة (فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منه ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خُفّه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له»**. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: **«في كل كبد رطبة أجر»**)!!

إننا ـ باختصار شديد ـ نعيش عصر الكذب... والدجل... والتزييف، الذي يراد به التغطية على ما يمارسه الغربيون من جرائم كبرى بحق الإنسان، ومن تزييف خطير بحق الأديان... وكلنا نذكر هذه المفارقة الكبرى بين المناداة بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وملاحقة الإرهاب... وبين الممارسات

الواقعية المترعة بالإرهاب... واغتيال حقوق الإنسان... والإبحار في اتجاه مغاير تماماً لما تتطلبه بديهيات الالتزام بمفاهيم الحرية والديمقراطية.

فلا حول ولا قوة إلا بالله...

أداة الشيطان

(عن أسامة بن زيد، أن النبي ﷺ قال: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرّ على الرجال من النساء»**)...

فلا إغراء المال... ولا إغراء القوة والسلطان... ولا إغراء التكاثر بالذراري والأولاد... ولا إغراء التكديس المجنون للذهب والفضة... والخيل والأنعام... يعدل في ضرره لأولئك الذين استعبدهم الإغراء بشتى صنوفه... فتنة النساء!!

فها نحن نرى بأمِّ أعيننا ما تفعله هذه الفتنة بمجرد أن ننزل إلى شوارع مدننا وأسواقها ونواديها ومسابحها... أو بمجرد أن نلقي نظرة ونحن نقلب ريموت التلفاز من قناة إلى قناة... فإذا بمعظم هذه القنوات التي تتجاوز الألفين عدداً... تعرض (المرأة) في أشد حالات الفتنة والإغراء، وتزيدها ـ يوماً بعد يوم ـ تبرّجاً وتعهّراً وفجوراً... دون أن تراعي حقيقة أن هذه القنوات قد اخترقت على الناس كافة مساكنهم وصالات جلوسهم وغرف نومهم... حيث يتحتم أن تراعى حرمة البيوت ومطالب الطفولة التي تفتح عينيها ووعيها على هذا الفجور اليومي، حتى ولو كان

عبر رحلة عابرة وسريعة ونحن نقلّب قنوات التلفاز بحثاً عن البرامج النظيفة الهادفة التي تبني ولا تهدم وتسوق أطفالنا إلى الدمار...

إننا حتى ونحن نتابع نشرات الأخبار نجدنا وجهاً لوجه أمام ثلة من المذيعات المتبرجات بل والمتعهّرات أحياناً... وكأنهن وهن يذهبن لإلقاء نشرة الأخبار يتجهن إلى ملاهي العروض المثيرة للفتنة والإغراء...

والفضائيات تتسابق في توظيف المرأة لفتنة الرجل... في الأفلام والتمثيليات والسهرات التلفازية والحواريات... وعبر (الإعلان) الذي يأخذ مساحة واسعة من البرامج اليومية ويوظف الجسد الأنثوي لترويج بضاعته...

ما من برنامج إلا وهو مخترَق بفتنة المرأة، التي إذا أرادت الاستمرار على كسب دخلها الموفور، فإن عليها أن تكشف عن لحمها أكثر فأكثر حتى لم يتبق ثمّة إلا أصبع أو أصبعين لكي يرى المُشاهد عياناً ملابسها الداخلية!!

ولطالما وُظِّفت المرأة، فضلاً عن هذا كله، فيما هو أشد وأخطر، بما تملكه من فتنة لا يمكن مقاومتها... في المافيات التي ترفع سلاح المال والجنس والقتل لتحقيق أهدافها الخطيرة... في الانتخابات البرلمانية والدعايات الحزبية، التي تستعمل فيها للترويج وتوسيع قاعدة الأنصار والمؤيدين... في الأنشطة السياحية التي يراد منها أن تتحول إلى ماخور كبير تُوظَّف فيه فتنة المرأة

لكسب المزيد... بل في أعمال التجسس الخطيرة، وأنشطة المخابرات التي تدخل فيها المرأة طرفاً فاعلاً... وكلنا نذكر مذكرات (اعتماد خورشيد) التي تزوجها زعيم المخابرات المصرية زمن عبد الناصر: صلاح نصر... كيف أنه كان قوّاداً كبيراً يوظف الفنانات والراقصات في شبكة مخابراته... وكيف كان يقيم في إحدى منتدياته حفلات الممارسات الجنسية القذرة، وكيف أفلتت من قبضته الممثلة المعروفة (مريم فخر الدين) وغادرت مصر إلى لبنان...

لقد غدت المرأة في زمننا هذا مجرد أداة رخيصة للاستعمال والتوظيف لدى سماسرة العالم وتجّاره الكبار ففقدت بذلك مكانتها المتميزة وكرامتها التي أرادها لها هذا الدين.

فهل ثمة أضرّ على الرجال... بل على المؤسسات والأنشطة السياسية والإعلامية والاقتصادية... من المرأة؟

صدقت يا رسول الله... وكأنك تتحدث عن المستقبل البعيد، وتجتاز برؤيتك النبوية الثاقبة حجب الغيب لكي تؤشّر، وتحذّر، وتنبّه، من هذا السرطان الخبيث الذي سيستشري لإفساد الرجال... والأطفال... والقادة... والزعماء... وأرباب السياسة والمال...

وكلنا نذكر ما تفعله إسرائيل التي لا تردُّ نساؤها يد لامس، إذا استعملنا عبارة الداعية المصري الكبير (محمد الغزالي) رحمه الله... كيف أنها وظفت ولا تزال أجمل النساء لاصطياد الأنصار وإرغامهم على طاعتها وإلا كشفتهم بكاميرتها الخفية... وكيف أن

الزعيم الفرنسي المعروف (جاك شيراك) وهو يقوم بزيارة إلى إسرائيل دفعوا إليه بواحدة من أجمل الفتيات لكي يقضي معها عدة ليالٍ حمراء...

وجاك شيراك ليس وحده... بل إن بعض الزعماء الفلسطينيين أنفسهم اصطيدوا في تسعينيات القرن الماضي بالشبكة نفسها، فأصبحوا تحت قبضة بني إسرائيل!!

نعم وبكل تأكيد... فليس ثمّة فتنة أضرَّ على الرجال من النساء... وصدقت يا رسول الله...

فهي عنده فوق العرش

(عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لمّا قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»**)...

يا الله... على هذا الفضاء الواسع الذي يغطي على سلوك الإنسان المنحرف، وأخطائه وضلالاته، مهما اشتدت واتسعت مساحاتها، فيغريها بالعودة إلى الطريق، بعد أن يمسح على خطاياها ويعدها بالمغفرة والفلاح!

يا الله... على هذه الصورة المؤثرة التي تجعل الرحمة تغلب الغضب في سباق الصراع اللاهث بين الحسنات والسيئات، من أجل أن تعطي الإنسان الخاطئ الفرصة المفتوحة على مداها، للوصول إلى خط النهاية والفوز بالجائزة الكبرى... بعد أن يكون قد تطهّر من آثامه ومعاصيه!

الطريق المفتوح حتى آخر الشوط، حيث لا عوائق ولا متاريس ولا شبكات اصطياد من أجل الإيقاع بالإنسان الكادح وسَوْقه إلى العقاب العسير... على خلاف ما تحدثنا به التراجيديات اليونانية

الكبرى، وما انسرب في عقول وضمائر الغربيين الملاحدة على مدى التاريخ... حيث وُضع الإنسان في دائرة معادلة خاسرة يقاتل فيها قوى غيبية تفوقه بكثير، وينتهي الأمر دائماً بهزيمة الإنسان...

ليس ثمّة هزيمة ها هنا في ظلال هذا الدين السمح القادم من لدن الله ﷻ خالق الإنسان، وهو أدرى بما خلق... بهذا الكائن الفريد المعجون من نفخة الروح العلوية وقبضة الطين السفلية... تلك تسعى إلى رفعه إلى فوق وهذه تجرّه إلى الأسفل... ويدور الصراع على مدى عمر الإنسان كلّه... وها هنا يجيء الأمل الكبير بانتصار الإنسان على الخطيئة وإفاءته إلى رحمة الله التي سبقت غضبه، كما يحدثنا رسول الله ﷺ!!

تلك هي إحدى الحقائق الكبرى في هذا الدين، وهي ليست كلاماً يقال، وإنما وعد إلهيّ مقدس من ربّ العالمين... مدوّن في كتابه الكبير... فهو عنده فوق العرش!!

أإلى هذا الحدّ يبلغ من تأكيد الإسلام على الرحمة التي تغلب الغضب، بحيث إنها كالعهود المقدسة تسجّل في كتاب الله الكبير فوق العرش؟

ألا يدفعنا هذا إلى التشبث أكثر فأكثر بهذا الدين، الذي يمنحنا هذا الفضاء الواسع والسماء الكبيرة والأفق المفتوح للخلاص؟!

فأيّة عقيدة أخرى في العالم... وأيُّ دين غير هذا الدين...

وأيّ قانون غير قانون الإسلام مَن رفع الرحمة فوق الغضب... والعفو فوق العقاب... والسماحة فوق الشدة... كهذا الدين؟

عبر حياتي الطويلة، بفضل الله، جست معظم نظم العالم وأديانه المحرّفة وفلسفاته وتشريعاته وآدابه وفنونه... فلم أجد في أية واحدة منها، أو قريباً منها، هذه القاعدة الكبرى التي يؤكدها رسول الله ﷺ في حديثه هذا: الرحمة التي تغلب الغضب...

ومن أجل ذلك... من أجل أن الغضب طالما أخذ برقاب الإنسان فاكتسح به الرحمة... قامت المذاهب والدعوات والثورات الدموية، التي طالما افترس القائمون بها بعضهم بعضاً... ومن أجل ذلك حدّت السكاكين وشفرات السيوف لكي تفترس السماحة والرضا... ومن أجل ذلك نظّرت الشوفينيات الكبرى، والتجارب الشيوعية، والهوبزية الأمريكية من أجل قتل الإنسان، إذا أرادت أن تكون سيدة في هذا العالم، وألا تتزحزح عن موقعها العالي المتسلط على رقاب الناس!!

ومن أجل هذا مضى الفاتحون المسلمون لفتح العالم، لا لكي يرغموا الآخرين على اعتناق هذا الدين، كما يتوهم البعض من خصوم هذا الدين، وإنما للإطاحة بالسلطات الباغية التي تسعى لإرغام الإنسان على اعتناق عقائدها تلك، التي يغلب فيها الغضب على الرحمة، وإتاحة حرية الاعتقاد للإنسان في كل زمن ومكان...

ومن أجل هذا كان تخيير الفاتحين للأمم والشعوب: الانتماء إلى الإسلام، أو البقاء على أديانها وعقائدها... أو القتال...

فالطريق مفتوح على مصراعيه لاستمرار موازييك العقائد والأديان في الخارطة الإسلامية: اليهود والنصارى والمجوس والصابئة... الخ... الخ... فلو أنّ أيَّ قدر من الإرغام تمّ بحقِّهم ـ كما يقول المستشرق البريطاني المعروف: سير توماس أرنولد في كتابه: الدعوة إلى الإسلام ـ لما بقي في ديار الإسلام يهودي أو نصراني واحد... وهو يقول أيضاً أنه في متابعته المستقصية لانتشار الإسلام على مدى ثلاثة عشر قرناً، لم يجد حالة واحدة أُكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام!!

إنها دعوة الرحمة بالإنسان، تلك التي يحدثنا عنها رسول هذا الدين (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وأنها كتبت فوق العرش... تأكيداً وديمومة واستمراراً: «إن رحمتي غلبت غضبي»...

بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحدثنا فيقول: (قُدم على النبي صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تحلّب ثديها تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: **«أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟»** قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: **«الله أرحم بعباده من هذه بولدها»**)!!

(وعن أبي هريرة قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن اختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة»**)!!

ليس لنفسك يا رسول الله... تتجاوز إغراءات الذات التي

أسرت ملايين الناس، بمن فيهم القادة والزعماء، من أجل حماية أمتك... تخليصها من العذاب... ألست أنت ـ بحق ـ المخلّص، المتفرّد، الكبير؟

فيا أيها الضائعون وسط ضلالات القيادات البشرية الطاغية، التي استعبدتها القوة والأثرة، فسلطتها على رؤوس الأمم والشعوب باسم قيادة العالم والتفرّد بحكمه...

أفيقوا...

دين المحبة

(عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريلَ إن الله يحبُّ فلاناً فأحببْه فيحبُّه جبريل، فينادي جبريلُ في أهل السماء: إن الله يحبُّ فلاناً فأحِبّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع القبول له في الأرض**»)...

ومنذ أن أعلن عيسى عليه السلام في إنجيله الصحيح (إن الله محبة)، وحتى كلمات رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ هذه... راحت المحبة تتصادى في جنبات الكون والعالم... وفي ضمير الإنسان، ووجدانه وسلوكه... المحبة التي لو قُدّر لها أن تحكم الدنيا لما شهدت الدنيا هذا العنفوان الدموي الرهيب من الكراهية والصراع والبغضاء...

المحبة التي تغسل أدران النفوس، وتعرّضها للشمس، وتفتح أمامها بوابات السماء الكبيرة والفضاء الواسع، الذي يلتقي فيه الإنسان بالإنسان في أقصى حالات التوافق والرضا والانسجام...

المحبة التي يبدؤها الله جلّ في علاه بأن ينادي جبريلَ بأني أحب فلاناً فأحببه فيحبه جبريل... ثم ما تلبث دائرة المحبة أن

تنداح لكي تشمل أهل السماء والأرض على السواء: «فينادي جبريلُ في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»!!

أيُّ تأكيد هذا على (المحبة) التي يُراد لها أن تحكم الحياة، وأن تطرد خبثها ونتنها والتواءاتها وشططها وميولها وأهواءها وظنونها... تلك التي قادتها في نهاية الأمر إلى أن يقتل بعضها بعضاً وأن يذبح بعضها بعضاً بسكين الكراهية والبغضاء... بل قادتها إلى ما هو ألعن من هذا وأشدّ فتكاً بالإنسان... إنه ذلك السباق الرهيب في ابتكار أجهزة الحرب الذرية بآلياتها وطائراتها وبوارجها العملاقة وصواريخها العابرة للقارات، والتي ذاقت الشعوب المستضعفة من ويلاتها ما ألحق بها وببنيتها التحتية الخراب والدمار، وتخريج أجيال من المعوقين والمشوهين نفسياً والمصابين بالإشعاعات الذرية تلك التي تصفّي منهم في العراق وحده عشرات الآلاف سنة بعد أخرى...

وكردّ فعل على غياب المحبة والسلام بين الشعوب؛ نادت الماركسية بأعلى صوتها أنها جاءت لكي تنشر السلام... وتشكلت على مدى تجربتها ـ التي لم تعش بأكثر من سبعة عقود ـ بالسلام العالمي، وأنشأت له المنظمات وعقدت له الندوات والمؤتمرات... لكنها كانت في واقع أمرها تبحر باتجاه مضاد لما تدعو إليه... فإن مفاهيم القتل والتصفية الطبقية مركوزة في

صميم عقيدتها، منفذةً عبر تاريخها الدموي الطويل... فأين هو السلام؟ وأين هي المحبة بين الشعوب؟!

ومهما حاول صُنّاع المذاهب والنظريات الوضعية من وضع ديكور المحبة والسلام على وجه عقائدهم البشعة، والمترعة بالكراهية والبغضاء... وبروح الحرب والقتل والإبادة الجماعية... فلن يقدروا على غرس المحبة الحقيقية في ضمير الناس وسلوكهم... وفي سياسات الزعماء وأرباب المذاهب والنظريات...

لن يقدر على هذا سوى الدين القادم من عند الله، الذي هو أرأف بعباده من الأم على أولادها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

الدين الذي أعلن نبيه عيسى عليه السلام بأن الله محبة... ونذر حياته لتحقيق هذا الهدف الإنساني النبيل بكل ما ينطوي عليه من معنى... ولمَّ حوله حوارييه وتلامذته وبعثهم إلى الآفاق لكي يبشروا بدعوته هذه...

الدين الذي جاء نبيه الأخير محمد بن عبد الله (عليه أفضل الصلاة والسلام) لكي يتمَّ ما بدأه أخوه عيسى عليه السلام فيدعو إلى المحبة، ويؤكّدها في سلوكه وتعاليمه... ويحدثنا عبر هذا الحديث المؤثر الذي تتصادى المحبة في جنباته بين أهل السماء وأهل الأرض:

(فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تبارك وتعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ**

عبدي بشيء أحبَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما تردَّدت عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن يكره الموت؛ وأنا أكره مساءته»)!!

فأيَّة محبة تفوق هذه المحبة الإلهية للإنسان المؤمن، وتعلو عليها؟! إننا هنا بإزاء قمة من قمم المحبة العليا، التي تتضاءل إزاءها وتمّحي سائر أنواع المحبة البشرية الصادقة أو المدّعاة... ها هنا يقف الله جلّ في علاه إلى جوار عبده فيكون بصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها... ولسوف يستجيب له كلَّ سؤال ويبعده من كل مكروه... يا الله... ألى هذا الحدّ تبلغ محبتك لعبادك وأوليائك؟! ألى هذه الدرجة من التصادي مع هموم الإنسان ومطالبه تكون الاستجابة العليا؟ جلّ جلالك يا الله... جل جلالك...

(وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرّب إليَّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إلي ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً»)!!**

بل إن المحبة الإلهية تبلغ حدّ الصبر المدهش على الأذى الذي يُلحقه العباد برب العزّة جلّ في علاه، بأن يمارسوا بحقه

الكذبة الكبرى في تاريخ البشرية على الإطلاق... أن يدّعوا له ولداً وحاشاه:

(فعن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «**ليس أحدٌ أصبرَ على أذى سمعه؛ من الله. إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم**»)!!

وثمّة أخيراً وليس آخراً هذا الحديث الذي يختصر الأمر كله:

(عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»).

فلو أن كل مسلم في هذا العالم قدّم لأخيه ما يحبه لنفسه، فهل يتبقى ثمّة حقد أو كراهية أو غلّ أو بغضاء؟ وهل يكون المؤمن مؤمناً بحق إلا أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه؟ لنجرّب ولسوف نرى النتيجة المدهشة...

وتمدّ المحبة الإلهية جناحيها إلى ما وراء الحياة الدنيا... إلى يوم الحساب... فتذهب مع الذاهبين إلى الجنة لكي تمنحهم ظلّها الظليل:

(فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً**»)...

وليس بعد هذه المحبة الإلهية الكبرى من زيادة لمستزيد...

ولكنْ ماذا يصنع الإنسان وهو ما يلبث أن يجد نفسه قبالة مجموعة من أدعياء الدين وكهنته ومرتزقته ممن يزيّفون جوهره، ويمسخون تعاليمه النبيلة، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً؟ إذ ما عتمت المسيحية الأصيلة أن تلّقت بعد مرور عقود محدودة فحسب على رفع المسيح عليه السلام إلى السماء، جملة كبيرة من التحريفات التي ألصقت بهذا الدين على يد واضعي الأناجيل المزيّفة، وأحدهم وهو القديس بولس ممن كان يحمل معه شبكة من المفاهيم الوثنية اليونانية، فطغت على تعاليمه الأصيلة، وقادت الشعوب المسيحية إلى تجاوز كل مفاهيم المحبة والانتقال إلى الاصطراع والكراهية والبغضاء؟

وماذا يصنع الإنسان وهو ما يلبث أن يجد نفسه قبالة العديد من الفرق الإسلامية، التي اعتمدت العنف بدلاً من المحبة، التي جاء بها هذا الدين لكي يؤكدها وينشرها بين الناس؟!

دين التيسير

(عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي النبي ﷺ: **«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»**).

(وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: **«فيما استطعت»**).

(وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: **«إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه»**).

(وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة فقال: «من هذه؟» قالت: فلانة تذكر من صلاتها، قال: **«مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملّوا»** وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه)!!

❁ ❁ ❁

هذه جملة من الأحاديث الشريفة التي تؤسس لسلوكيات هذا الدين... تؤكد على الرفق، والسماحة، والعمل بما فُطرت عليه جبلّة الإنسان من قدرات وطاقات.

الاستطاعة... والجهد المكافح بما يطيقه الإنسان، وليس بما

يضيّق عليه الخناق. لأن الدين يسر «ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه»... ولأن الإلحاح في التعامل مع مفرداته ومطالبه قد يقود إلى (الملل)، وربما إلى التنازل عن الالتزام بمطالب الدين نفسه، والتفلّت من مقتضياته...

وثمّة عبارة ذات دلالة مؤثرة، تلك التي يقول فيها رسول الله ﷺ: «فو الله لا يملّ الله حتى تملّوا»... فيا سبحان الله على هذه المفارقة المدهشة بين الله جلّ في علاه، المنزّه عن كل شيء على الإطلاق، وبين عباده... فإذا ملّوا لكثرة التشدّد والغلوّ... فإن الله سبحانه وتعالى يملّ وحاشاه!!

وفي مقابل هذه الأحاديث التي تدعو إلى الرفق والسماحة والتعامل المناسب تماماً لقدرات الإنسان، ثمّة شبكة أخرى من الأحاديث التي تندّد بالتشدّد والغلوّ، لا يتسع هذا المقال لاستعراضها، ولكنها تؤدي في نهاية الأمر حتى إلى إهلاك الأمم والشعوب، فضلاً عن التخلي عن دينها وأخلاقها...

إن هذا كله ينبثق عن القاعدة القرآنية التي تقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، بل عن التسمية التي أطلقت على ديننا السمح المرن الذي يعرف كيف يتعامل مع الإنسان، فلا يضيّق عليه الخناق ويدفعه دفعاً إلى أن يفلت من بين يديه: (الحنيفية السمحاء)... ففي هذه العبارة الموجزة اختصار للأمر كله...

صحيح أن هناك نفراً من المسلمين، يأخذون في تعاملهم مع

مفردات هذا الدين بالعزم، ابتغاء الحصول على أجر أكبر، وأنهم ضربوا بذلك أروع الأمثلة في التاريخ البشري... ولكن الناس ليسوا كلهم سواء... وهذا الدين إنما جاء للناس كافة... ومن أجل ذلك ترك لهم الباب مفتوحاً للتعامل مع مطالبه كلٌّ بما يطيق...

ومعروف أن الأفعال الخاطئة تؤكد ردودها الخاطئة، بنفس القوة وفي الاتجاه المعاكس، وأن الغلوّ والتشدّد، وفق هذا المنطوق، طالما قاد أجيالاً من الناس إلى أن يهربوا من مظلة هذا الدين، ويبحثوا عن ممرات لهم خارج مطالبه، لكي يريحوا أنفسهم ويلبّوا أشواقهم المكبوتة!!

وها نحن ذا نرى رأي العين في واقعنا المعاصر الأكثريات الساحقة التي انتمت إلى الضلال، وحادت عن الصراط المستقيم، لا لشيء إلا لأنها انقلبت على شبكة من الالتزامات المغالية، المتشددة، التي لم تعد تطيقها لأنها تصطدم ابتداء مع طاقة الإنسان وقدرته على التحمّل.

بل إن الكثير من الفرق الضالة، ما ساقت أتباعها إلى الضلال إلا بإلزامهم جملة من العقائد الباطلة، والمطالب الملتوية، والأوامر المشددة، فخسر الإسلام بذلك مساحات كبيرة من المنتمين إليه...

(«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»)

في الأمر كلِّه... على إطلاقه... فليس ثمة مساحة، أو حلقة في هذا الدين تخرج عن مطالب الرفق الذي يحبه الله، ورسوله

ﷺ يقول: «**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه**»... ومن أجل ذلك كان التخفيف عن المسلمين المسافرين في صلواتهم جمعاً وقصراً... وكلّنا ذاق حلاوة هذه الرخصة وهو يسافر من مكان إلى مكان، راكضاً وراء مطالبه المزدحمة، حيث لا يجد الوقت الكافي لأداء الصلوات الخمس في أوقاتها، فإذا بها تختزل بجمع التقديم أو التأخير، إلى ثلاث فحسب، حيث يتاح للمسافر أن يرجع إلى فندقه فيؤديها...

وذاق حلاوتها الصائمون الذين يجدون في أسفارهم أو مرضهم مشقة الجوع والعطش؛ إذا التزموا بالصيام، وبالتالي فُتحت أمامهم الأبواب لكي يفطروا ويعوّضوا بعد عودتهم أو شفائهم عما أفطروه... وكلنا يعرف ما فعله رسول الله ﷺ، هذا المعلم الكبير، في أحد أسفاره التي وقعت في رمضان، كيف أنه أمسك في وضح النهار بقدح الماء، وهو راكب على ناقته، وشربه قبالة جموع الصائمين وكأنه يريد أن يقول لهم، بل يأمرهم، بأن يفطروا هم الآخرون فيريحوا أنفسهم من العطش والمعاناة...

الحنيفية السمحاء... تلك هي قاعدة هذا الدين، ولن تدخّن عليها أو تلغيها من الحساب كل دعوات الغلاة والمتشددين... ما دام أن الله ﷻ قد اختار لها هذا العنوان، ووضع عليها هذه اللافتة التي تختصر الأمر كله!!

فلو أننا دخلنا على الغربيين الذين يتزايد دخولهم في ساحة هذا الدين، كما تشير الإحصائيات، بهذه الرؤية السمحة، وقدّمنا

لهم شواهد عليها من سلوكنا المستمد من قيم هذا الدين، وتجاوَزْنا التعامل معهم بمنطق التنديد والتشدد والتشبث، الذي يتجاوز كل حد، بالشكليات، فكان حصادنا أكبر بكثير... بكثير جداً... ولكن!!

ونختم المقال بهذا الحدث الشريف الذي يغني عن أية زيادة:

(عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيغضب حتى يعرف الغضب على وجهه ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»)...

وصدقتَ يا رسول الله!!

الكرم الإلهي

(عن أبي سعيد الخدري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفّر الله عنه كل سيئة كان زلفها، وكان بعد ذلك القصاص الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها»**)!!

فأيُّ كرم هذا يا رب العالمين؟!

(وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ فيما يروي عن ربه جل جلاله قال: **«إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة»**)!!

أيُّ كرم أن تعاقب السيئة بمثلها، وأن تضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها ثم إلى سبعمائة ضعف؟!

أيُّ كرم هذا بأن يُفتح الباب على مصراعيه حتى لتجاوز السيئة بالعقاب بمثلها؟

أليس هو كرم الله سبحانه وتعالى الذي تتضاءل إزاءه كل محاولات

عباده وهم يمارسون الكرم مع الآخرين من أصدقائهم أو خصومهم على السواء؟

ويمضي الكرم الإلهي إلى آفاق بعيدة بعيدة، بحيث إنه يغسل من النفس البشرية أي إحساس بالتأثم وهي تمارس الخطايا واللمم، شريطة أن تكون شهادة التوحيد المطلق لله جلّ في علاه مركوزة في فطرتها، ومعها وزن شعيرة أو برّة أو ذرّة من خير:

(فعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير. ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير. ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرّة من خير**»)!

بل إن الكرم الإلهي ليلاحق المرضى والمسافرين، فيكتب لهم في أعمالهم من الأجر مثل ما كانوا يعملونه وهم أصحاء مقيمون:

(فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «**إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**»)!!

إننا هنا بإزاء الأبواب المشرعة للخلاص.. بإزاء الطريق المفتوح للخروج... بإزاء ما يمكن اعتباره معالجة نفسية مدهشة للإنسان الوجل الخائف من العقاب بسبب ذنب ارتكبه، أو خطيئة مارسها... معالجة تعرف كيف تستأصل ـ بالكرم الإلهي ـ كل مشاعر الخوف والإحساس بنزول الويل والثبور...

نقارن هذه المساحة الهائلة للكرم الإلهي... للعفو الإلهي... بما يفعله الإنسان بالإنسان من قتل وإبادة وعقاب جماعي تشيب

لهوله الولدان... نقارنه بالمقتلة الشاملة التي تمارسها قبيلة ضد قبيلة، بحجة الحصول على مطالب المعاش... وقومية ضد قومية بحجة التفوق العرقي... وأمة ضد أمة بحجة البحث عن المجال الحيوي... ودين محرّف ضد دين محرّف بحجة هداية الناس إلى الحق، وطبقة ضد طبقة بحجة مطالب الديالكتيك التاريخي... وزعامات جائرة ضد الشعوب المستضعفة بحجة المنطق الهوبزي الذي يقول بأنك إذا أردت أن تحكم العالم؛ فإنّ لك أن تستخدم أقصى درجات القوة في ازاحة، بل في إبادة خصومك!!

وفق هذا المنظور الذي يغيب فيه الكرم في التعامل بين الإنسان والإنسان، شهد التاريخ البشري أبشع أنواع المذابح... وليس أقلّها بطبيعة الحال إبادة مائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر في الساحة الأمريكية... وتهجير ملايين الزنوج الأفارقة بالقسر إلى الدنيا الجديدة وتعريضهم للموت والفناء... والحربين العالميتين اللتين أتتا على ما يزيد عن السبعين مليوناً من القتلى... وسباق التسلّح النووي الذي كشّر عن أنيابه بقنبلتي هيروشيما وناكازاكي اللتين أبادتا نصف مليون مواطن ياباني... وفي دمار مفاعل تشير نوبل الذري السوفياتي وما أحدثه من خراب في الساحة الأوربية... وفي مجازر أمريكا وحلفائها في كوريا وفيتنام والصومال وافغانستان والعراق... وفيما فعله الاستعمار القديم الذي تولت كبره بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا من قتل وإبادة ملايين الناس في أقطار العالم القديم...

ليس ثمّة مساحة للكرم، والسماحة، والعفو، والمحبة، والإخاء البشري على الإطلاق... ليس ثمة سوى القتل والإبادة والخراب...

ولا زلت أذكر يوم كنت أجلس إلى جوار أستاذ زميل لي من الدعاة الإسلاميين نستمع إلى مناقشة أطروحة للدكتوراه في كلية آداب جامعة الموصل... وإذا به يلتفت إليّ فجأة ويقول: أليس أولى بنا، ونحن نسعى لكسب الغربيين والخصوم إلى هذا الدين أن نلغي من كتاب الله كل صيغ التهديد بنار جهنم ووقودها الرهيب كي لا نستفزّهم وندفعهم إلى الفرار!!

فما كان مني إلا أن أقول له: بدلاً من ذلك أيها الأخ الكريم: أليس الأولى أن نعرض هذه المساحات والتعاليم والممارسات المضيئة في ديننا وتاريخنا من أجل إغراء الآخر بالانتماء لهذا الدين، فيما تشهده الساحتان الأوربية والأمريكية وفق متواليات هندسية يوماً بعد يوم؟!

إن التلويح بالعقاب، يعد وفق أحدث النظريات التربوية، من الضرورات الأساسية، لتقويم سلوك الإنسان المعوجّ... ولكن إلى جانب هذا لا بدّ من تقديم صيغ السماحة والعفو والقبول والتقييم تلك التي تدفع الناس دفعاً إلى الانتماء إلى هذا الدين وإعادة صياغة حياتهم وفق مطالبه؟

سكت الرجل ولم يُحِر جواباً، وكأنه أحسّ بخطأ موقفه ذاك الذي يعكس الرؤية العوراء للكثيرين من العلمانيين وخصوم هذا الدين، المتشبثين بمبدأ (إما هذا أو ذاك) بدلاً من مبدأ (هذا وذاك)!

العقاب والثواب... وها هنا في صفحة الثواب نجد أنفسنا ونحن نقف قبالة هذا الكرم الإلهي الذي يتجاوز كل الخطايا والآثام، ويعفو عنها، ويُخرج أصحابها من النار، شرط ألا تمسّ نقطة الارتكاز الأساسية في هذا الدين، وهي شهادة **لا إله إلا الله**... حتى لو كان في قلب الواحد منا وزن شعيرة أو بُرّة أو ذَرّة من خير.

يا الله على هذا الكرم الإلهي الذي لا حدود له، والذي يعد المذنبين بالخلاص فيطهرهم ـ حتى الأعماق ـ من أي إحساس بالخطيئة التي تمسك ـ عبر الأديان المحرفة الأخرى ـ برقاب الإنسان!!

ثم ها نحن نستمع لأبي هريرة ﵁ وهو يحدثنا كيف أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم فأيُّ مؤمن سببته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة**»!

ما هذا الكرم النبوي الذي يتصادى مع كرم الله جلّ في علاه عن الأبواب المفتوحة لأبناء هذه الأمة بتجاوز خطاياهم وكسب رضا الله وثوابه... حتى أولئك الذين يظن رسول الله ﷺ أنه سبّهم فيدعو الله أن يكون ذلك لهم قربة إليه يوم القيامة؟

أيَّةُ حساسية مدهشة هذه من لدن الرسول الإنسان ﷺ، وأيّ حرص على إنقاذ أتباعه من هول يوم الحساب؟!

دين التناصح

(عن جرير بن عبد الله البجلي، قال: إني أتيت رسول الله ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام فشرط عليَّ: **«والنصح لكل مسلم»**، فبايعته على هذا)...

فلو أن كل مسلم في هذه الدنيا شرط على نفسه النصح لكل من يعرفه، أو يلتقيه، أو يتعامل معه من إخوانه المسلمين... وقبل هذا كله: النصح لنفسه، أي ممارسة ما يسمى اليوم بالنقد الذاتي، الذي يتحتم أن يلجأ إليه الإنسان في نهاية كل يوم فيسترجع ممارساته عبر ذلك اليوم بمفرداتها كافة، إيجابيِّها وسلبيِّها، من أجل أن يضيّق الخناق على ثانيتها، ويشمِّر عن ساعد الجد لملاحقتها في اليوم التالي، لكي يزداد توحّداً مع عقيدته ومطالب دينه، ثم هو يمضي بعد ذلك الجهد المكافح إلى كل من يلتقيه من المسلمين لكي ينبّههم إلى ضرورة هذا النقد لكل واحد منهم...

لو حدث هذا الذي يأمر به الرسول المعلّم (عليه أفضل الصلاة والسلام): أكان يمكن لحياتنا عبر صيرورتها الاجتماعية أن تشهد هذه الحشود المزدحمة والمتكاثرة كالسرطان من

المشاكل والآلام والأخطاء والمنغصات؟ وقبل هذا وذاك من ذلك الانفصام المحزن بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون؟!

ولطالما قدّم الفلاسفة والمفكرون مشاريعهم الإصلاحية من أجل تكوين المجتمع النظيف المتوحّد السعيد... وصمموا، أو تصوّروا، مدناً مقدسة، ويوتوبيات مدهشة، وجمهوريات فاضلة... ولكن مشاريعهم تلك لم تتجاوز حدود الكلمات التي كتبت بها، ولم تخرج من بين دفتي الكتب التي احتوتها إلى واقع الحياة... وسرعان ما غدت قضايا متحفية لا تصلح إلا للبحث والدراسة والمقارنة دون أن تنزل إلى واقع الحياة لكي تعيد صياغتها كما يشتهي هؤلاء الفلاسفة والمفكرون...

وتلك هي مشكلة الفكر الوضعي على مدار التاريخ... إلا أن للدين موقف آخر على النقيض تماماً... إنه بقوة الإيمان، والرقابة الإلهية الدائمة لنشاط الإنسان، تلك التي لا تندّ عنها صغيرة ولا كبيرة... وبالوعد الإلهي الكبير بالثواب... وبالتعاليم والكلمات التي ترسم لهذا وتدفع إليه... بهذا كله يتحول المشروع الديني عموماً، والإسلامي على وجه الخصوص، إلى أمر واقع، وجهد مؤكد، وعمل منظور في واقع الحياة الإسلامية على مستوى الأفراد والجماعات... على السواء...

فبمجرد أن يُصدر رسول الله ﷺ أمره بالتناصح بين المسلم والمسلم، سرعان ما يصير أمره هذا تعليماً ملزماً، وممارسة يومية، ونشاطاً ميدانياً يمضي لكي يغطي حياة كل فرد، ثم هو يتجاوز هذا إلى حياة الجماعة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها...

يا الله... كم ستكون الحياة الدنيا، قبل الآخرة، سعيدة، جميلة، وضيئة، متوحدة، متوازنة، تنبض كل مفرداتها بالاستقامة، والتوافق مع الفطرة البشرية، والمضيّ على الصراط... بحيث تغدو الحياة الإسلامية مثلاً يُحتذى ليس في عالم المثاليات والأخيلة والتصوّرات التي يحلم بها الفلاسفة والمفكرون، ولكن على مستوى الواقع اليومي في الذات، في البيت، في المدرسة، في المسجد، في المؤسسة، في الشارع، في المنظمة، وفي كل منحنيات الحياة الاجتماعية ما دام أن هذه الحياة أريد لها منذ اللحظة الأولى، لحظة مبايعة الرسول ﷺ على الانتماء لهذا الدين؛ أن تكون قائمة على الملاحقة المتواصلة، والجهد المكافح لشتى صنوف الأخطاء والالتواءات في سلوك المسلم الفرد، وعبر العلاقات الاجتماعية عموماً...

فلنجرب الالتزام الصادق بهذا التعليم، الذي كم تبدّت لنا خطورته والنتائج المدهشة المترتبة عليه، على مستوى الأفراد والجماعات... لنجرب أن نقول، ونحن ننصت لهذا الحديث النبوي الشريف: نعم يا رسول الله، إننا نبايعك على النصح لكل مسلم، بل على النصح ـ قبل هذا ـ لأنفسنا، ثم نشمّر عن ساعد الجد لممارسة النقد الذاتي والملاحقة الاجتماعية... ساعة بساعة، ويوماً بيوم، وبالأسلوب المرن والمنفتح الذي ييسّر ولا يعسّر، ويبشر ولا ينفر، ويكسب ولا يطرد... وبحدود الطاقة التي يملكها كل إنسان بما هو ميسّر له... ولسوف نرى نتيجة هذا كله انعكاساً

على واقع حياتنا الفردية والاجتماعية، التي سيتشكل نبضها تحت مظلة الإيمان، والقوة الدافعة لهذا الدين الذي يعرف كيف يجعل الكلمات أفعالاً!!

ولسوف يظل الفلاسفة والمفكرون يبنون مدنهم الفاضلة، وبيوتاتهم السعيدة، وجمهورياتهم المثالية، دون أن تملك مشاريعهم كافة (القوة) الحقيقية التي تحوّلها إلى أمر ـ واقع، وتُلزم الأتباع والمعجبين بتنفيذها في واقع حياتهم...

تلك هي الثنائية الكبرى في تاريخ البشرية، وذلك هو الخندق العميق الذي يفصل بين الفكر البشري الوضعي وبين المعطيات الدينية القادمة من عند الله ﷻ...

ومن أجل ذلك شهدنا على مدى التاريخ تساقط كل النظم والعقائد والرؤى والتصوّرات الوضعية واحدة بعد الأخرى... اشتراكية طوباوية، شيوعية، وجودية، قومية شوفينية، تفوّق العرق الأبيض... الخ... الخ...

فليت الأمرَ يقف عند حدود مشاريع المدن والجمهوريات الفاضلة، ولكنه يمضي لكي يقضم كل العقائد والمذاهب والمنظومات الفكرية... ويخرجها من التاريخ...

ولا يتبقى ثمّة إلا هذا الدين الذي يملك القدرة الدائمة على تكوين الدافع الفعال الذي يقدر على تحويل الكلمة إلى فعل... في كل زمن ومكان...

الأسلوب المرن

(عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: **كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيّام كراهية السآمة علينا**)!!

وذلك هو ما تقول به أكثر النظريات التربوية جدّة وحداثة... فإننا بالإلحاح في فرض التعاليم واعتماد أساليب القسر في توصيلها للآخرين، ومحاولة تكثيف معطياتها في مدى زمني قصير... نقود بالضرورة إلى النفور منها والسآمة من تقبُّلها... وربما الهروب بعيداً في الاتجاه المعاكس لمطالبها وأهدافها المبتغاة...

إن الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) يلتفت إلى هذه الحقيقة النفسية التربوية، فيعتمد ـ بدلاً من ذلك ـ أسلوب (الموعظة في الأيام)... أي الأناة والصبر ومدّ الفترة الزمنية لقبول التعليم، والاقتناع به، وتمثّله وتحويله إلى أمر واقع في السلوك البشري...

ومن أجل ذلك... من أجل كراهيته للصيغ القسرية التي تبعث على السآمة، كسب ﷺ أجيالاً من المنتمين الصادقين،

المتوحدين بين القول والسلوك، وبين الكلمة والفعل، وبين التعليم والممارسة، ولهذا قدرت تلك الأجيال من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين على أن تكون نماذج بشرية عالية يُحتذى بها في كل صغيرة وكبيرة من ممارسات الحياة، وهموم الإنسان، ومطامح الجماعة... بل أن تقدر على (الإنجاز) الكبير الذي يخترق حيثيات الزمن والمكان، ويحقق ما يشبه المستحيل في ميدان الفاعلية التاريخية، سواء في سياق الدعوة، أم الحرب والفتح، أم في بناء الدولة والمؤسسات الحضارية.

وذلك ما يحدثنا به تاريخ تلك الأجيال الفريدة، التي عرف رسول الله ﷺ كيف يربّيها (بالموعظة في الأيام)، فيبعدها عن أي إحساس بالملل والنفور والسآمة، ويدفعها إلى تقبّل تعاليمه وتمثّلها وتحويلها إلى واقع حياتهم اليومية بمفرداتها وتفاصيلها كافة.

إن أسلوب رسول الله ﷺ هذا يذكرنا بذلك الحوار الذي دار بين الخليفة الراشد الخامس (عمر بن عبد العزيز) وبين ابنه...

الابن: ما يؤمنك في منامك وقد رُفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها؟

الأب: يا بنيّ إن نفسي مطيّتي، إن لم أرفق بها لم تبلّغني!! إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي. إن الله جلّ ثناؤه لو أراد أن يُنزل القرآن جملةً لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين، حتى استكنّ الإيمان في قلوبهم.

الابن: مم تخاف؟

الأب: يا بنيّ... ما أنا فيه أمرٌ هو أهم إليّ من أهل بيتك (الأمويين)، هم أهل القدرة والعدد، وقِبَلهم ما قِبَلهم. فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي. ولكني أنصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له!!

وفي موقف آخر يسأل الابن أباه: لماذا تؤخر بعض الأمور؟ فيجيب الأب: والله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئاً من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم خوفاً من أن ينخرق عليَّ منهم ما لا طاقة لي به!

ويوماً قال له ابنه: يا أمير المؤمنين، انقد لأمر الله وإن جاشت بي وبك القدور... فماذا يكون جواب الخليفة المرن؟: يا بنيّ، إن بادهتُ الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف، ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف، لا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف!!

وفي الحالتين... في حالة رسول الله ﷺ مع التعاليم، وفي حالة الخليفة عمر بن عبد العزيز، نلتقي هذا الوعي المدهش لأساليب التربية، والشفافية الفائقة في التعامل مع مفرداتها ومطالبها كافة.

لقد عرفت في حياتي العديد من الأشخاص الذين ارتبطوا يوماً بالنشاط الدعوي لكنهم ما لبثوا ـ ربما بسبب (كراهيتهم للسآمة) و (عدم تخوّلهم بالموعظة في الأيام)، كما كان يفعل رسولنا ﷺ ـ أن فكّوا ارتباطهم بالدعوة... لا بل إن بعضهم

تحرّك في الاتجاه المضاد فأصبح خصماً لدوداً لها... وبذلك لحقت بالنشاط الدعوي خسارة مضاعفة ما كان لها أن تكون لو تمّ التعامل معهم بالرفق والأناة وبالموعظة في الأيام...

التوحيد... ذلك التأسيس الكبير...

(عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه**»).

(وعن أنس رضي الله عنه، قال: كان معاذ رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرحل، فقال: «**يا معاذ!**» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**يا معاذ!**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**يا معاذ!**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثلاثاً. قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار**» قال: يا رسول الله! أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذاً يتّكِلوا**»... وأخبر بها معاذ عند موته تأثّماً)!!

وما دام الأمر كذلك فدعوني ـ إذن ـ أحدثكم عن جوانب فحسب من قيمة التوحيد...

إنه أثمن جوهرة نملكها في هذا العالم... ذلك الذي تنداح دائرته باستمرار لكي تغطي كل مفردة في حياة المسلمين المعرفية والسلوكية على السواء... إنه نقطة الجذب والإشعاع معاً... القلب الذي يعطي ويأخذ، يضخّ ويتلقى...

بما أن التوحيد الذي ينبثق عن الشهادة التأسيسية الكبرى

(لا إله إلا الله) هو المرتكز والهدف، فإنه سيدخل منذ اللحظة الأولى في الزمن، وسيمتد في المكان، إلى كل جزئية من جزئيات النشاط الحضاري، لكي يطبعه بهذا التقابل المؤثر الفعال مع الله الواحد جلّ في علاه، ويصبغه بكلمة الله التي يأخذ عنها المسلم منهاج العمل ويتوجه إليها في الصيرورة والمصير...

ولسوف تتأكد هذه الخصيصة المحورية لدى مقارنة الحضارة الإسلامية بأية حضارة أخرى، دينية محرّفة أو وضعية... إننا هنا بإزاء عودة إلى الجذور... إلى الحقيقة الكبرى في أقصى درجات وضوحها وفاعليتها وتألّقها... إن الحضارة الإسلامية سيقدّر لها أن تمنح الفعل البشري وهو يعمل، فرصته في أن يستعيد وظيفته الأصيلة... خليفة في هذا العالم، مستعمراً لله وحده فيه...

في التاريخ، في الجغرافيا، في النفس، في المجتمع، في الفلك، في الطب، في الهندسة، يعبّر التوحيد الإسلامي عن نفسه... في المعادلات الكيمياوية والجيوب واللوغارتيمات... في المنائر الواثقة المتفردة الصاعدة إلى السماء، وفي القباب المتكورة على الخشوع والتسليم... في كلمات الشعراء ولمسات المعماريين، يتجلى التوحيد كما لم يتجلّ في أية معرفة أخرى.

لقد منح التوحيد نشاطنا الحضاري عبر التاريخ وحدته المتماثلة، وشخصيته المتفردة... شدّ جزئياته وتفاريقه في أنساق واحدة تتجه خيوطها جميعاً صوب الهدف الواحد، وتنبثق عنه، لكي ما يلبث النسيج في نهاية الأمر، أن يجيء معبراً بلسان الحال عن صنع يدَيْ نسّاج واحد.

على مستوى الدافع يضع التوحيد العالم والمفكر المسلم قبالة الله ﷻ مسؤولاً عن قدراته التي أودعه الله إياها... ساعياً لأن يستثمرها حتى حدودها القصوى... على مستوى الهدف تصاغ معطيات هذا السعي المعرفي لكي تكون متوافقة مع كلمة الله، متجاوزة، ما وسعها الجهد، أي قدر من الثنائية أو الازدواج.

وفي كل الأحوال يغدو الكون والعالم والطبيعة من صنع الله القادر المهيمن المبدئ المعيد، ويتحرر المسلم من سائر الخرافات والصنميات التي تلبستها الطبيعة والعالم في المذاهب والأديان المحرفة الأخرى... فعرقلت انطلاقه الحرّ للكشف عن السنن والطاقات والنواميس... إن التوحيد يضع المسلم حرّاً في مواجهة الكتلة الكونية، فاعلاً مريداً... يضعه فوق هذه الكتلة سيداً على الخلائق... ومن ثم يصير التوحيد فرصة كبرى للتحقق بالمعرفة، للاستزادة منها، من أجل الإمساك بتلابيب العالم والطبيعة والحياة... والتقرّب أكثر إلى الله...

ودائماً كان التوحيد هو صمّام الأمان عبر تعامل الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى، فلا تأخذ، في الأعم الأغلب، إلا ما ينسجم وإياه، ولا تمرّر إلا ما يسمح هو بتمريره إلى شبكة الحضارة الإسلامية... وها هنا أيضاً أعطى التوحيد الفرصة لهذه الحضارة بأن تتحقق أكثر بوحدتها وخصوصيتها، سيما إذا تذكرنا أن الحضارات الأخرى، كانت تنبض في ايقاعها، في كثير من الأحيان، أصوات الآلهة والصنميات والثنائيات والأضداد.

وكما يقول غارودي، القادم من نسيج حضارة الغرب التعددية، في كتابه (وعود الإسلام): «**لا إله إلا الله**» هذا الإثبات الأساسي للايمان الإسلامي». وهو يعرف جيداً ما الذي يعنيه هذا الإثبات على مستوى المستقبل البشري، وما الذي يعنيه ـ بالمقابل ـ على مستوى التاريخ!!

وأتذكر كذلك عبارة غارودي في كتابه ذاك: «**لا إله إلا الله**»... هذه الشهادة الكبرى التي لو أُحسن التعامل معها لزحزحت الجبال عن مواضعها... فما الذي كان أو يكون أو سيكون قبالة «**لا إله إلا الله**»؟ لا شيء!!

إننا إذا أردنا أن نكون شيئاً في هذا العالم... أن نكون كفاء إنسانيتنا ودَورنا في الأرض... كفاء وجودنا ومصيرنا في رحلة الحياة الدنيا، وفي الآخرة... فإن علينا أن نتحقق حتى آخر حجيرة في تكويننا الآدمي... **بلا إله إلا الله**... وإلا فهو الوهم والزوال الذي لا يؤول إلى شيء على الإطلاق... ظلال لا عمق لها تتحرك على سطح الزمن والمكان وتغيب دون أن تخلّف أثراً...

إننا إذا أردنا أن نكون حاضرين في هذا العالم؛ فإن علينا أن نتحقق **بلا إله إلا الله**... بكل ما تنطوي عليه الشهادة من معنى... تلك هي الحقيقة الكبرى... الحقيقة الأولى والأخيرة التي تعلّمنا إياها شهادة **لا إله إلا الله**...

أعرفتم لماذا يكون أسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامة... من قال: **لا إله إلا الله** خالصاً من قلبه ونفسه؟!

لا تكذبوا عليّ!!

(عن علي، وكذا عن أبي هريرة رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تكذبوا عليّ، فإنه من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار»**)!!

نعم... إلى هذا الحدّ يا رسول الله...

فإن الكذب... مطلق الكذب، يعدّ بشهادة الجميع واحداً من أخسّ الأعمال وأشدّها حقارة... فكيف إن كان على رسول الله؟!.

كيف... والسنة النبوية، والحديث الشريف يُعدّان الركن الثاني، بعد كتاب الله، لهذا الدين الأخير الذي أريد له أن يكون خاتم الأديان إلى يوم القيامة؟!

هل ثمّة تزييف أكبر من هذا التزييف، الذي يحكي على لسان رسول الله ﷺ أحاديث ما قالها، فيحشرها جهلة الناس ممن لا خبرة لهم بعلوم الحديث وضوابطه، في صلب هذا الدين، لكي ما تلبث أن تصبح بمرور الوقت، وتكرارها على الألسنة، جزءاً من بنيانه... وحاشا لرسوله ﷺ...

وما أكثر الكَذَبة عبر تاريخنا الطويل... وما أشدّ المغريات

التي تدفع ضعاف النفوس، بل حتى أولئك الذين تُخيّل إليهم تقواهم، ويدفعهم إيمانهم المزعوم، على ادعائها على رسول الله ﷺ بحجة تليين قلوب الناس، وترقيقها، وسَوْقهم إلى المزيد من الطاعات!!

ولكن عبارة رسول الله ﷺ المنذرة، المتوعدة: «لا تكذبوا عليّ، فإن من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار»، تقف كسدّ منيع قبالة هذا الإغواء المضلل وتكنسه من الطريق...

بم؟

بجهود أولئك العمالقة الكبار من علماء الحديث وشيوخه ورجالاته المخلصين، من أمثال البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه وابن حنبل... وغيرهم كثيرون لا يكاد يحصيهم العد، انتشروا على مدى التاريخ الإسلامي، في كل بقعة وعبر كل زمن... ينقحون، ويتابعون، ويغربلون ويضعون القواعد والمعايير، من أجل عدم قبول أي حديث نبوي إلا بعد تمريره بقنواتهم العلمية الدقيقة، وعبر جهود كبيرة افترست أعمارهم حتى لحظاتها الأخيرة...

نعم.. وبكل تأكيد... فالكذّابون كثيرون، ودوافع الإغراء بالكذب كثيرة هي الأخرى... بعضها طائفيّ مقيت، وبعضها لتحقيق ميل أو هوى، وبعضها الثالث للحصول على مكسب أو منفعة... وبعضها الرابع بدافع من إيمان بعض الناس بأن وضع هذا الحديث أو ذاك سيزيد من مساحة الإيمان في هذا العالم

وسيغري الآخرين بممارسته والانتماء إليه... حتى ليقال أن المدعو (ابن مريم) وحده وضع في العراق آلاف الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ...

وكلنا يعرف ويتابع تلك الحملات المسمومة ضد حجّية السنة النبوية ومصداقيتها، والتي بدأها العديد من المستشرقين وتابعهم فيها أذنابهم من المسلمين أنفسهم، ممن حُسبوا على جغرافية عالم الإسلام، وهم لا يحملون شيئاً ولو ضئيلاً من قيمه وتعاليمه، بل وحتى بديهياته ومسلّماته...

تلك الحملات التي أريد لها التشكيك بمدى سلامة ما نُقل إلينا من أحاديث رسول الله ﷺ، وبالتالي هدم الركن الثاني الذي تقوم عليه عقيدة الإسلام وشريعته وتعاليمه بعد كتاب الله...

إنها محاولة خبيثة وماكرة لزعزعة بنيان هذا الدين، الذي لن يغلبه أحد بإذن الله... وهم يبنون مقولاتهم الخبيثة تلك على ذلك السيل الطامي من الأحاديث الموضوعة على لسان رسول الله ﷺ من قبل أصحاب الميول والمصالح والأهواء، دونما تمييز بينها وبين تلك الأحاديث الصحيحة التي سهر على فحصها وتوثيقها ثلّة مباركة من رجال الحديث وعمالقته الكبار في الماضي والحاضر وأكّدوا مصداقيتها المطلقة.

وتظلّ بوابة السوء هذه تنفث دخانها وخبثها... ونقطة انطلاقها دائماً هي (الكذب على رسول الله ﷺ)، ذلك الذي حذّر منه وكأنه يرى بأم عينيه ما سيلحق بشبكة أحاديثه المترعة

بالقيم والتعاليم والإضاءات القيّمة لمعطيات القرآن الكريم... من عواصف وأنواء...

ومن أجل ذلك توعّد كل الذين يمارسون هذه الخطيئة الكبرى بأنهم قد تبوؤوا مقعدهم من النار... فليس ثمّة من تهديد لوقف هؤلاء الدجالين عند حدّهم أكثر من أن تدسّ أنوفهم في نار جهنم ورمادها!!

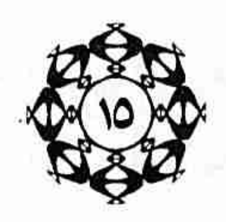

لتركبن طبقاً عن طبق!!

(عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «**أرأيتم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد**»!!).

صدقتَ يا رسول الله وأنت تتحدث عن أجيال الناس التي يطوي بعضها بعضاً... ويُدفن بعضها فوق بعضها... صدقت وأنت تذكّر أصحابك، عبر لحظاتك الأخيرة، بقوة الزمن، وجبروته، وبطشه، وكيف أن سكينه الحادة تمضي لكي تفترس الناس جميعاً... لا تستثني منهم أحداً... فما أن يمضي قرن من الزمن، وربما أقل بكثير، حتى يكون جميع الأحياء الذين يتخبطون على ظهر الأرض، قد أصبحوا تحت ترابها، وتهيأ منجل الموت لكي يقضم جيلاً آخر من الناس لن تتجاوز أعمارهم المائة عام بأية حال من الأحوال... اللهم إلا في حالات استثنائية لا يقاس عليها... والاستثناء كما هو معروف يعزز القاعدة ولا ينفيها...

صدقتَ يا رسول الله وأنت تهزّ عقول الناس على مدار

التاريخ... وتحرّك ضمائرهم... وتنفخ في أرواحهم وأفئدتهم علّهم ينتبهون إلى هذه المفارقة المحزنة.. إنهم جميعاً مهما طالت بهم الأعمار سيؤولون في نهاية الأمر إلى مغادرة مواقعهم في الحياة الدنيا، وينزلون مرغمين، وحتف أنوفهم، إلى الحفر الضيقة لكي يتلقّوا الحساب... فما من أحد يفرّ من هذا المصير... ما من أحد يخرج على قانونه الصارم أو يتمرد عليه... الكل سواء... الكل محكومون بهذه النهاية المحتمة القادمة إليهم عبر عشر سنين أو عشرين أو ثلاثين أو سبعين أو تسعين... ولكنها لن تصبر عليهم حتى يتجاوزوا المائة من السنين... أبداً... لن تصبر عليهم...

إن رسول الله ﷺ يرسم ها هنا بكلماته الموجزة هذه مسيرة الحياة الدنيا، ويؤشر على مغزى وجودنا في هذا العالم، الذي كتب علينا أن نغادره شئنا أم أبينا... وكأنه يقول للظلمة والطواغيت والفجرة والمترفين وعشاق المال والمناصب والمتهافتين على الشهوات الدنيا... انتبهوا أيها الناس... أفيقوا... فإن تكالبكم هذا على الإمساك بتراب الأرض، وإنشابكم المخالب والأظفار في ترابها وعفنها ولزوجتها لن يؤول إلى شيء... ما دمتم جميعاً، بعد خمسين عاماً أو مائة، سترحلون... ستغادرون كل ما حرصتم على جمعه والإمساك به، عضضتم عليه بالنواجذ، وتجاوزتم من أجل ذلك كل مطالب إنسانية الإنسان التي تعلو به على الصراصر والحشرات... تلك التي يقتل بعضها بعضاً ويفتك بعضها بالبعض

الآخر... من أجل أن تحيا دقيقة مضافة من الحياة، في نُقرها الضيقة المعتمة السوداء...

أيها الناس!. انتبهوا، قبل أن يجيئكم منجل الموت ويدسّ أجسادكم في التراب دون أن يسمح لأيّ منكم... لأيّ منكم على الإطلاق... أن يأخذ معه إلى الحفر التي سيُدسّ فيها أيّ شيء على الإطلاق من المال أو الوجاهة أو التسلّط... مما بذل حياته، ودينه، وشرفه، من أجل لمِّها وتكديسها والاستعلاء بها على الآخرين.

في كتاب الله ذلك القَسَم المؤثّر، المترع بالجمالية والتعاليم، حيث نقرأ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٩]...

يا الله على هذه اللوحة الرائعة التي يقسم بها رب العزة أنه ما من جيل من الناس إلا ويجد نفسه مسوقاً إلى مطحنة الموت... مدفوناً في تراب القبور... طبقاً عن طبق... جماعة إثر أخرى... وجيلاً بعد جيل...

من أجل ذلك ألقى رسول الله ﷺ تعليمه ذاك، بعد العشاء، في آخر حياته... وهي اللحظات التي يشفّ فيها الإحساس البشري وينفتح الوعي على حقائق الوجود، لكي يذكّر الناس جميعاً... في كل زمن ومكان... لكي يذكّرنا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين الذين جعلنا الدنيا أكبر همّنا، ومبلغ علمنا، ورحنا نتسابق على أشيائها التافهة ومكاسبها الزائلة ونركض وراءها ركض الوحوش

في البراري دون أن نقبض على شيء... فإن هي إلا دورة الزمن تدور فترغمنا على أن ننفض أيدينا من كل شيء... ونغادر الدنيا وليس معنا سوى الأكفان...

يذكرني هذا بأخي (نبيل) (رحمه الله) الذي اختطفه الموت في عزّ الشباب، كيف أنه قبل وفاته بسنوات قلائل وقف لكي يلقي محاضرة في مجال تخصصه الذي أبدع فيه، عن (فيروس الحاسبات) بمناسبة العيد الفضي لتأسيس جامعة الموصل عام (١٩٩٢م)، وكيف أنه حوّل محاضرته تلك، رغم علميتها الصرفة، إلى مقطوعة موسيقية من الأداء الفني الجميل شدّت انتباه كل الموجودين في القاعة، وكيف أنه وهو ينهيها قال مخاطباً المستمعين كافة: (عقبال اليوبيل الذهبي لجامعتكم العزيزة هذه)!

فكأنه أراد بذلك أن ينبههم إلى حقيقة الحياة الدنيا... وإلى سرّها العجيب... إنهم جميعاً يومذاك... يوم يحلّ العيد الذهبي لجامعتهم، بعد خمس وسبعين عاماً، قد أصبحوا جميعاً تحت التراب...

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يضرب به المثل على مقولته الصادقة تلك... إذ ما لبث بعد بضع سنوات أن اختطفه الموت... رحمه الله...

رفض للوثنية

(عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». قالت: لولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يُتخذ مسجداً)...

إنه الرفض المطلق لعبادة الأجساد... للوثنية التي تعرف بالمكر الشيطاني كيف تتسلل إلى الوجدان البشري فتقوده إلى الضلالة، وتصدّه عن التوحيد المطلق الذي يرفض أي قدر من التجسيد...

وتلك هي مهمة أيّ دين في هذا العالم... يهودياً كان أم نصرانياً أم إسلامياً... أن يرتفع بالإنسان إلى آفاق التجريد، الذي ينأى بالحس البشري عن أية صيغة من الصيغ التي تريد سحبه إلى التجسيد...

وما كان انحراف الأديان السابقة على الإسلام إلا من هذه البوابة المغطاة بألف حجاب، ولكنها إذ تنكشف لكل ذي عينين انما تنكشف عن الشرك والوثنية... وإلا فكيف يصبح العزير ابناً لله وحاشاه؟ وكيف يصير المسيح رباً يمارس قيمومته على الحياة

البشرية أسوةً بخالقه الواحد الأحد سبحانه؟ وإلّا كيف يهرع بنو إسرائيل إلى إغواء السامري الذي صنع لهم عجلاً جسداً له خوار فيعبدونه من دون الله؟ وإلّا كيف تغدو أجساد الموتى من النبيين والقديسين والشهداء، أضرحة للتبرّك والتقرّب والتوسّل والعبادة؟!

إن الإنسان الذي هو مزيج مدهش من نفخه الروح العلوية ولزوجة الطين السفلية، طالما سحبته الثانية صوب الشرك والتجسيد... وصدّته عن المضيّ قدماً إلى فوق... إلى سماوات التجريد وفضائه الواسع الذي يعرف كيف يحرّر الإنسان، ويفجر طاقاته الخلّاقة، ويقفه ـ بالإخلاص المطلوب والفاعلية في أقصى درجاتها ـ قبالة الله الواحد جلّ في علاه...

إنها ثنائية الصعود والهبوط، ومأساة البشرية التي كُتب عليها أن تعاني الصراع الأبدي بين القطبين... والقلّة القلّة هي التي تقدر على الاستجابة للتحدي وتواصل الصعود متشبثة بمفاهيم التوحيد التحريرية قبالة أجيال من الناس انساقت وراء إغواء الهبوط السهل إلى دركات التجسيد والشرك والوثنية...

ومن أجل هذا كانت الأديان تتنزل، الواحد إثر الآخر، ويبذل أنبياءها جهدهم القاسي من أجل تعديل الوقفة الجانحة والعودة بالبشرية إلى الصراط... ومن أجل هذا جاء الإسلام، تلك الرسالة الخاتمة، لكي يكون الصوت الأخير الذي يدعو إلى التوحيد ويقاتل الشرك والوثنية في أقصى حالات تكشفها وفي أشد أوضاعها خفاء وتعقيداً...

ولقد كانت إحدى علامات ذلك الانحدار المرفوض صوب الوثنية، من بين مئات العلامات والممارسات، أن تتخذ قبور الأنبياء (عليهم السلام) مساجد، يزورها المؤمنون الذين أريد لهم أن يتمحضوا لعبادة الله الواحد مصداقاً للآية الكريمة ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]...

ولكن هؤلاء جاؤوا ـ ابتداء ـ لكي يدعوا مع الإله الواحد أنبياءه، ويتوسّلوا إليهم، ويتبرّكوا بهم، ويقدّموا النذور لهم... بل أن ينفصلوا بمشاعرهم شيئاً فشيئاً عن التعلق بالله إلى الالتصاق بأجساد أنبيائه الكرام!!

وبمرور الوقت يزداد هذا الانفصال، ثم ما تلبث أن تتصل به جملة من الطقوس والعباذات والتقاليد الخاطئة، حتى تصير ركاماً يغطي على ألق الأرواح التي خنقتها تلك الطقوس والتقاليد، فانطفأت فيها جذوة التعبّد الحق، والتوجّه بالعبادة والدعاء إلى الله الواحد جلّ في علاه...

يتضاءل النبض الروحي لهؤلاء حتى يكاد يغيب ولا يتبقى إلا التشبث بقشور الشكليات والطقوس الميتة التي تثير القرف والاشمئزاز...

بل إن الأمر تجاوز هذا كلّه إلى ملء المعابد والكنائس بمنظومة من الأصنام المجسّدة التي تمثل هذا النبي أو ذاك... وهذا القدّيس أو ذاك... وبشبكة من الأيقونات التي تكاد تسد الطريق على الذاهبين إلى المعابد والكنائس، والتي أضفيت عليها

حالة من التقديس بحيث أصبحت كأنها الهدف الأساس من المجيء إلى المعبد والكنيسة لكي تؤدَّى إليها فروض الطاعة والتعبد والتقديس...

أإلى هذا الحد يكون الانحدار بالمفاهيم الدينية المحرّفة إلى دركات الصنمية الفاضحة والمكشوفة؟ أإلى هذا الحدّ يكون التنازل الطوعي عن آفاق التوحيد الرحب الذي جاء الأنبياء جميعاً لكي يرفعوا إليها المنتمين... فيحرروهم، ويمضوا بهم من الظلمات إلى النور...

أإلى هذا الحدّ؟!

١٧

سمحاً إذا باع... سمحاً إذا اشترى

(عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: **«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»**)...

وعلى مدى سنوات طويلة من حياتي كنت إذا نزلت إلى السوق للتبضّع... لشراء الفاكهة والخضار والحاجات المعاشية، أحمل معي همّاً يومياً هو ألّا أتعرض للغش من قبل البائعين... وقبل هذا ألّا أسمع منهم كلمة واحدة مما يخدش مشاعري...

ولكن تحقيق مطلب كهذا يبدو أنه كان من قبيل المستحيلات... إذ ما تلبث بعد أن تعود إلى بيتك محملاً بأكياس البضائع والمشتريات؛ أن تجد البائع قد سبقك في عملية انتقائها فوضع فيها بضاعة مدسوسة... وعندما ترجع إليه في اليوم التالي معاتباً إياه بأقصى كلمات اللطف والسماحة، ينفعل ويضيف إلى غشه ما هو ألعن وأشد مرارة: إنه يكذب عليك ويقسم بالله، وبأغلظ الإيمان، أنه لم يمارس معك هذا الذي تتهمه به من الغش والتدليس!!

يتكرر هذا يوماً بعد يوم، مع المشترين كافة، لا يكاد ينجو

منهم أحد... بل إن ـ الأمر تجاوز هذا إلى نوع من الغش الخبيث، الذي يقوم أصحابه على عرض بضاعتهم بطريقة مزدوجة: أن يضعوا صنفها الجيد في واجهتها ويحشروا فيما وراءها أكداس البضاعة التالفة التي أصابها الخراب... وعندما تبدأ عملية الوزن لا يضعون في كفة الميزان إلا تلك البضاعة المدلسة والمعطوبة...

يا الله... أإلى هذا الحدّ يبلغ سوء التعامل بين الناس في ديارنا الإسلامية!. بينما هناك في ديار الغرب (الكافر) وفي أسواقهم المركزية، تعرض البضاعة مكشوفة بكاملها أمام المشترين، فينتقون منها ما يشاؤون، وقد يقتضي هذا وقوفهم عندها مديات زمنية طويلة دون أن يمنعهم أحد من القائمين على شؤون السوق!!

أهكذا تنعكس الحالة... فننسى وسط حمى الرغبة في الربح غير الشريف تعاليم ديننا ونبينا، بينما يعمل بها ويتشبث الغربيون قبل أن يقرؤوا عنها أو يعرفوا شيئاً مما أرادت أن تقول؟

فماذا لو أننا التزمنا هذه التعاليم في مفردات حياتنا كافة، ألا نكون قد تفوقنا على الغربيين في ممارساتنا وعاداتنا وتقاليدنا، فعشنا أجمل حياة، وأسعدها، وأنظفها؟

ألا نكون قد حوّلنا دنيانا هذه المترعة بالتعاسة والغش والنكد والشروخ والرغبة العاتية بالربح السريع، بعيداً عن الالتزام بمنظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية، بل بأية منظومة على

الإطلاق... حوّلناها إلى جنة سعيدة على الأرض، مترعة بالغبطة والتوافق والمحبة والانسجام... قبل أن ننتقل إلى الحياة الأخرى؟!

وعبر تعاملي مع البائعين على مدى عمري؛ لم أحاول يوماً أن أفاصلهم في سعر البضاعة، كنت أدفع لهم ما يريدون دون أي قدر من الإلحاح لتخفيض قيمة بضاعتهم... كنت (سمحاً) وأنا أمارس الشراء، التزاماً بتعاليم الرسول ﷺ، وكنت أرجو بذلك أن يمارسوا هم الآخرون السماحة معي في البيع، وأيضاً التزاماً بتعاليم الرسول ﷺ... وكنت أجد من بعضهم هذا الذي أرجوه، ولكن الكثير منهم للأسف الشديد كانوا يتحركون في الاتجاه النقيض الآخر، حيث تغيب السماحة في تعاملهم، فيكون الغش والتدليس... وكنت ـ فضلاً عن هذا ـ أتعامل بالسماحة نفسها مع كل العمال الذين يأتون لداري لإنجاز هذه المهمة أو تلك، فأعطيهم الأجر الذي يطلبون... ثم أضيف عليه... فيما يجعلهم يغادرون الدار وهم سعداء راضون، وأنا أكثر منهم سعادة ورضا...

فماذا لو أننا جميعاً، في ديار الشرق، نفّذنا بالجد المطلوب هذا الذي أمرنا به رسول الله ﷺ... فكان كل واحد منّا سمحاً إذا اشترى، وكان كل بائع فينا سمحاً إذا باع؟! إن رحمة الله سبحانه وتعالى ستمطر علينا حينذاك بالخير العميم بائعين ومشترين...

والأمر نفسه ينطبق على القضاء، وهو أشد خطورةً بكثير من أعمال البيع والشراء... ذلك أننا في هذه الساحة نتعامل مع الحق الضائع، ونسعى لاستردادِه، سواء كان مفترسه هذا الطرف أو

ذاك... فلو أن الطرفين التزموا السماحة وهم يتخاصمون... فاعترف هذا بذنبه، وتنازل ذاك عن جانب من حقوقه... بدلاً من إعلان حالة الحرب بين الطرفين، ومن وراء كل طرف محامون ومدعون عامون لا يرعَون - إلا قليلاً منهم - في الله حرمة، ولا يلتزمون مفاهيم الحق والعدل... أكان يمكن أن تمضي حياتنا المعاصرة التعسة النكدة هذه التي نحياها إلى هذا الحدّ البشع من النكد والتعاسة والتخاصم والشقاء... ومن افتراس الحقوق وتضييع الواجبات؟

صلى الله تعالى عليك أيها المعلم الكبير... يا رسول الله... وأنت تتقدم بتعاليمك القيّمة هذه لا لشيء إلا لبناء الحياة البشرية العادلة، السعيدة، الوضيئة، التي لا ظالم فيها ولا مظلوم...

سمحاً إذا باع... سمحاً إذا اشترى... سمحاً إذا اقتضى... ولسوف تظلّ هذه السماحة نجوماً بعيدة... بعيدة في أعماق السماوات، نطمح إليها ونتمناها... ولكن تنزيلها على واقع حياتنا الأرضية البائسة مستحيل... مستحيل... تقف دونه ألف عقبة وعقبة مما تصنعه نزوات الإنسان!..

حرب على الظلم

(عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: **«الظلم ظلمات يوم القيامة»**).

و(عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقه من سبع أرضين»**)...

❁ ❁ ❁

بهذه الكلمات الموجزة في مفرداتها، الخطيرة في دلالاتها، يختصر رسول الله ﷺ قضية الظلم في هذا العالم... إنها تحمل أشد صيغ التنديد والتخويف... فهي ظلمات يوم القيامة... وهي التطويق للظالم من سبع أرضين... أي من جهاته كافة... فلا يقدر على الإفلات، ويظل أسيراً في مصيدة الظلمات، محاطاً بالأسلاك الشائكة من كل مكان...

أيّ إنسان يستمع لهذين الحديثين الشريفين اللذين ينددان بالظلم، ولا يترجف خوفاً وهلعاً من ذلك المصير الأسود الذي ينتظر الظالمين؟!

إن رسول الله ﷺ ها هنا يستخدم أشد الصيغ المرعبة

لتخويف الناس من ممارسة الظلم... ومن أجل بناء حياة إنسانية عادلة سعيدة آمنة مطمئنة... يأتيها رزقها رغداً من كل مكان... لا ظالم فيها ولا مظلوم...

ومنذ فجر التاريخ البشري، وحتى اللحظات الراهنة وإلى أن يقوم الحساب... ظل الكتاب والفلاسفة والمفكرون والأدباء والمشرّعون يكتبون عن الظلم بصيغه كافة، منددين به وبأولئك الذين يبررونه أو يمارسونه... آلاف الكتب والقصائد والتشريعات ومئات المؤلفات الفلسفية، دُوِّنت عن الظلم في محاولة من كاتبيها لوقفه عن الاستمرار في افتراس الحياة والأحياء... ولكن دون جدوى...

استمر الظلم يفتك بالناس والحياة... وظلت هذه تعاني من ثنائية الظالم والمظلوم، تلك التي غطت الحياة بكل مفرداتها من أقصاها حتى أقصاها...

ومنذ طوعت لقابيل نفسه بقتل أخيه هابيل ظلماً وعدواناً، وحتى اللحظات الراهنة، حيث يتم اغتيال الجماعات والشعوب بالقنابل الذرية والصواريخ عابرة القارات، والقنابل التي تفرغ المغارات من الأوكسجين... وبالأسلحة البيولوجية والكيمياوية وباليورانيوم المخضب الذي يقتل في العراق وحده، منذ غزوه على يد أمريكا عام (٢٠٠٣م) عشرات الآلاف من الأطفال سنوياً... مروراً بإبادة مائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر على يد المستعمرين الأنكلوسكسون في الساحة الأمريكية... وبقتل ما يقرب من نصف مليون مواطن ياباني في هيروشيما وناغازاكي بإلقاء قنبلتين ذرّيتين عليهم...

وبإبادة مليوني فيتنامي ومئات الآلاف من الأفغان والعراقيين... هذا إلى إلقاء الشركات الرأسمالية الكبرى آلاف الأطنان من القمح والرز والبنّ في عرض البحر وإحراق الآلاف الأخرى... خشية من انخفاض أسعار مبيعاتها، بينما هناك في الطرف الآخر من العالم ملايين الجوعى والمعدمين والهياكل العظمية التي تئن من فتك الجوع والمرض وانتظار الموت... لكي يخلّصهم من المعاناة التي تعجز الأقلام عن تصوير ما تفعله بالإنسان...

ظل منطق الظلم يحكم العالم... المنطق الهوبزي الذي يبرر استخدام أقصى وتائر القوة والعنف لتأكيد واستمرار سطوة الدول الكبرى على قارات العالم وبحاره ومحيطاته...

لا زلت أذكر تمثيلية تلفازية رائعة يقوم ببطولتها الممثل المصري (توفيق الدقن) بعنوان ـ (الطبيب والسيدة)... وهو في نهاية التمثيلية تلك يصرخ (أدّ ايه الدنيا دي فيها ظلم...) فلا يملك المشاهد إلّا أن يتأثر لهذه الصرخة التي تعكس بالصدق الفني الكامل كل ما ينطوي عليه هذا العالم البائس من ظلم ومهانة وافتراس القوي للضعيف...

الظلم يغطي قارات العالم الستّ من أقصاها إلى أقصاها... ويتسلل كالسرطان إلى حجيراتها وشرايينها... ويقودها إلى التعاسة والبوار... ظلم القوي للضعيف... ظلم الغني للفقير... ظلم الحاكم للمحكوم... ظلم الطاغوت للمستضعفين في الأرض... ظلم الرأسماليين للعمال... ظلم الإقطاعيين للأقنان... ظلم السادة

للعبيد... ظلم الدول الكبرى للدول الصغرى... ظلم الذين يحملون سلاحاً للذين لا يملكون حتى الخناجر والسكاكين... ظلم الجبابرة النرسيسيين للجماعات والشعوب التي لا حول لها ولا قوة وسحقها بغير ما رحمة... ظلم الشركات الكبرى لعرق الكادحين وامتصاص دمائهم... ظلم المافيات الرهيبة للمواطنين الأبرياء... ظلم الإعلام المضلل وإغوائه للمستعبدين والمارقين... ظلم الجسد البشري المعروض على مصراعيه للمحرومين والمكبوتين... ظلم الإعلان الذي يظلّ يلحّ ويلحّ حتى يدجّن كل الرافضين ويسوقهم إلى طاعته العمياء... ظلم الرجل المستبد للمرأة الرقيقة... وهذه لزوجها الضعيف... وخيانتهما لبعضهما... ظلم الآباء للأبناء... والشيوخ الكبار لأتباعهم وخدمهم وعبيدهم...

الظلم... الظلم... الظلم... ينتشر في كل مكان وعلى كل مستوى... ويمضي لكي يفترس بمنشاره الرهيب سعادة الناس وأمنهم ومستقبلهم... وطعامهم وشرابهم... بل حتى الهواء الذي يتنفسون والماء الذي يشربون...

فكيف لا تأتي أحاديث رسول الله ﷺ الثائر على الظلم، لكي تعد الظالمين بأقسى أنواع العقوبة هناك في الدار الآخرة، حيث لن يفلت أحد من العقاب؟!

تتوعدهم بالظلمات التي ستحيط بهم في قعر جهنم، وبتطويقها إياهم من سبع أرضين ـ ... فهل ثمة من تنديد بالظلم والظالمين، أشدّ من هذا الذي يرفعه رسول الله ﷺ في وجوههم؟!

حتى في هذه يا رسول الله؟

(عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها؛ ما لم تعمل أو تتكلم»**)!

يوغل رسول الله ﷺ... هذا المعلّم والتربوي والطبيب النفسي الكبير... في أعماق النفس البشرية... يجوس في دروبها، ومنحنياتها... يسلّط فانوسه المضيء على أغوارها البعيدة... من أجل ملاحقة كل ما من شأنه أن يمسّها بالأذى، والشك، والتوجس، والتردد، والخوف من المصير... من أجل وضع اليد الخبيرة على جروحها وتضميدها قبل أن تمضي لكي تشطر الإنسان إلى شطرين، وتمزّقه قطعاً وتفاريق...

إن رسول الله ﷺ يسعى جاهداً في حديثه الشريف هذا إلى بناء الشخصية البشرية الفاعلة، المتوحدة، التي تعرف كيف تعيش حياتها وتمضي إلى أهدافها على الصراط الذي لا عوج فيه ولا أمتاً...

فهل ثمة أحد في العالم ينجو من (الوسوسة) التي تحيك في الصدور... يتحرر مما تثيره في النفس البشرية من شكوك

وأوهام... قد يكون للشيطان ـ الخصم لله وللإنسان ـ الدور الأكبر في إثارتها... وقد تتمخض عن فعل الإنسان نفسه، ذلك الذي تأسره الوساوس، خارج نطاق إرادته الذاتية، وتسوقه إلى التمزق والعذاب... فيما يسميه علماء النفس بالوساوس القهرية أو التسلطية، تلك التي تقهر الإنسان رغماً عنه وتتسلط على عقله وضميره وإرادته... بعيداً عن اختياره ورغبته... بل على النقيض منها... ومهما حاول الفكاك منها بإعمال قدراته العقلية وتحليله المنطقي... فإنه في الكثير من الأحيان يخرج مهزوماً... بائساً... كليلاً...

فإذا ما ارتبطت هذه الوساوس بشبكة التعاليم والقيم والممارسات الدينية، فإنها ستكون أشد فتكاً بالإنسان، لأنها تخترق أكثر قناعاته حصانةً وقدسيةً... وتسوقه إلى العذاب الذي يصعب وصفه!!

ها هنا يجيء المربي الكبير... ها هنا يتقدم النبي ﷺ الذي يعرف بنور الله ﷻ خفايا النفس البشرية... وما يتشكل في قاعها مما لا إرادة للإنسان فيه... فحتى يخلّصه من مردودها السيء... حتى ينقذه من دورها المسموم في تمزيق الشخصية البشرية؛ يصدر إعلانه الخطير ذاك... إن الله ﷻ تجاوز عن أمته ما وسوست به صدورها!! شريطة أن يظل الفاصل قائماً بين الوسوسة هذه وبين أن تتحول إلى فعل او ممارسة أو سلوك أو حتى كَلمة!!... أن يظل الخندق قائماً بين ما يحيك في جنبات

النفس البشرية وبين أن يتحول هذا إلى واقع منظور قد يقود إلى ما لا تحمد عقباه... وهو في معظم الأحيان، إن لم يشكم عن الوصول إلى هذه النقطة من الانزلاق نحو الفاعلية، يكون ضرره كبيراً؛ إن على مستوى الأفراد أو الجماعات...

ها هنا وبلمسة نبوية مدهشة يتم العلاج وفق مستويين...

أولهما: إزالة أي أثر من آثار الإحساس بالتأثم والخطيئة وتطهير النفس البشرية منهما...

وثانيهما: وقف فاعلية الوسوسة من أن تتحول إلى فعل منظور... وتقود إلى بؤر التفكك النفسي والاجتماعي على السواء...

ما من واحد منا إلا ووجد نفسه يوماً محاصراً بالوساوس القهرية أو التسلطية التي تضعه في دائرة العذاب... ولطالما تساءلنا عما قد تتمخض عنه من عقاب ما دام أنها مرتبطة أحياناً بالبعد الديني... وطالما حاولنا الفكاك من أسرها اللعين بإعمال كل قدراتنا العقلية والتحليلية والمنطقية... دون جدوى...

ويجيء حديث رسول الله ﷺ لكي يضع المرهم المناسب على الجرح، وبلمسة مدهشة يقوده إلى الشفاء، وهو في الوقت نفسه يصدّه عن أن يمضي قدماً فيتحول إلى ممارسات وأفعال وكلمات!!

فما أروع تعاليمك أيها النبي الكبير... وما أرق لمساتك وأنت تتعامل مع أغوار النفس البشرية فتضيء لها السبيل... وتخرجها من أزماتها سالمة غانمة... تماماً كما يفعل علماء النفس المعاصرون وفق أشد نظرياتهم حداثةً...

يذكّرني هذا بكتاب قيّم للداعية الإسلامي الكبير محمد الغزالي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ)... جدّد حياتك... والذي يقوم فيه بمضاهاة (العلاجات النفسية) التي توصّل إليها العالم الأمريكي الكبير (ديل كارنيجي) في كتابه الشهير (دع القلق وأبدأ الحياة) مع جملة من أحاديث رسول الله ﷺ فإذا بالسياقين يتطابقان تطابقاً يثير الدهشة والإعجاب...

ذلك أن كشوف هذا الدين، في كتابه الكريم وأحاديثه الشريفة... سيقدّر لها بإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تتطابق مع سائر الكشوف العلمية في ميدان النفس والعالم والكون... والتي ستعلن عن نفسها قرناً بعد قرن، وبخاصة عبر القرنين الأخيرين... مصداقاً للآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

حرب على التقليد الأعمى

(عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع»**. فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: **«ومَن الناس إلا أولئك؟»**).

وها نحن ذا نرى، ونمارس، ونعيش... بل نتشبث ونقدس ما يأتينا عن الآخر، غربياً كان أم شرقياً... رومياً أم فارسياً... شبراً بشبر... وذراعاً بذراع...

إنه التقليد الأعمى للآخر، والتنازل المطلق عن عاداتنا وتقاليدنا وأذواقنا وقناعاتنا، وإحساسنا المتميز بالجمال... إنه الركض المخيف وراء كل ما يطلع به الغرب أو الشرق علينا، حتى لو اقتضانا ذلك تغيير ملابسنا وأشيائنا اليومية، سنة بعد سنة، بل شهراً بعد شهر... بما يتطلبه ذلك من مصاريف تنوء بها العصبة أولو القوة...

وتجيء القنوات الفضائية، والإعلان المدروس بعناية، لكي تطرق على رؤوسنا صباح مساء... من أجل أن نلاحق تلك

المستجدات التي يبتكرها دهاقنة المال والإعلام في ديار الغرب والشرق، وننفذها حتى لو تشكلت على النقيض من عاداتنا وأذواقنا التي صنعها هذا الدين، وصاغتها قرون من الزمن...

أبداً... وكما عبر الرسول العظيم ﷺ: «شبراً بشبر وذراعاً بذراع»...

لا زلت أذكر واحدة من هذا الأخذ الأعمى عن الغرب، من بين عشرات ومئات، مما افترس نقود الناس، ودمّر أذواقهم، وحوّلهم إلى أدوات بلياتشوية للدعاية والإعلان، والتنفيذ السريع لكل ما يطلع هناك...

إنها أزياء الرجال التي تغيّرت من حالٍ إلى حالٍ نقيضٍ تماماً عبر أقل من عشر سنوات... ففي ستينيات القرن الماضي ابتكر ذلك الزي من البدلات الرجالية الذي ترق فيه حاشية الجاكيت (أو السترة) حتى لتكاد أن تصير أصبعاً... ويرق معها الرباط الذي يصير حبلاً... ومع الرباط ياقة القميص... ومع ياقة القميص ترقق الذقون هي الأخرى وتقصّر حتى لا تكاد ترى... أما الجهة الخلفية فيرتفع أسفل الجاكيت كثيراً عن تغطية خلفيات الرجال فتكشف مقاعدهم... وكيف أن بعض المدرسين ممن أغواهم الموديل الجديد هذا، كانوا حينما يديرون ظهورهم لطلبتهم، من أجل كتابة بعض المانشيتات على اللوحة... إذا بهم يصبحون، ومقاعدهم تهتز وتتمايل أمام طلبتهم ذات اليمين وذات

الشمال، فرجة للمتندّرين، حيث ترتفع أصوات الطلبة إعجاباً واستهجاناً معاً!!

بعدها بأقل من عشر سنين وفي عقد الستينيات، من القرن الماضي، تغيّر الموديل إلى النقيض الذي يحمل اسمه الأمريكي: الشارلستون!! فأصبحت حاشية الجاكيت (أو السترة) تمتد بعيداً حتى تتجاوز الكتفين، ورباط العنق ينفرج هو الآخر فيغطي الصدر كله... ثم تنزل الجاكيت إلى الأسفل بكثير حتى تصبح أشبه بالبالطو منها بالجاكيت... وأما الذقون فتزداد عرضاً وتنزل مسافات بعيدة إلى أسفل الوجه، فكأنها فردة حذاء لطخت على وجوه المقلّدين...

وفي الحالتين... فإن أكداساً من الأموال تكون قد أنفقت على تبديل الأزياء وذهبت إلى جيوب كبرى الشركات الرأسمالية التي تمارس العبث بحق الإنسان، وبكدّه وعنائه، في مشارق الأرض ومغاربها...

وأتذكر أيضاً، ما دمنا بصدد الشبر بشبر والذراع بذراع... والشيء بالشيء يُذكر كما يقول المثل المعروف... حادثة ملك الماكياج الأمريكي صاحب مصانع (ماكس فاكتور) المشهورة الذي يقال أنه، وهو يتجول في حديقة للحيوان مع صديق له، وقف لدقائق قبالة قفص للقرود، وحدّق طويلاً في عينَيَ إحداها، وكأنه أحسّ بدهشة صديقه وتساؤله فقال: على رِسْلك يا هذا، فليس في الأمر ما يدعو للدهشة... انظر إلى عينَيِ القرد جيداً... ألا ترى

حولهما حلقات ذات ألوان شتى من الأزرق والأخضر والأحمر والبنفسجي، وغيرها؟ نظر الصديق لحظات، وما لبث أن أجاب: عجيب... رغم أنني لم ألحظها من قبل... قال الملك باعتذار: تلك هي مهمتي على أية حال... أراد الصديق أن يتساءل مرةً أخرى، فأسكته بإشارة من يده قائلاً: إن إحساسي باللون لا يضاهى... وإلّا كيف أصبحت ملك الماكياج في العالم كله؟ ولكن ليس هذا هو المهم والمهم هو أن أجعل نساء الأرض يحطن أجفانهن بالألوان نفسها... وقد أضيفُ إليها نقاط ارتكاز ضوئي ذي بريق لكي يستكمل المهرجان أسبابه!! وقال، وهو يغادر مربتاً على كتف الصديق: المسألة مسألة وقت فحسب... ولسوف ترى...

انزلوا الآن إلى الأسواق... اذهبوا إلى الدوائر والمؤسسات... ادخلوا بعض قاعات الدرس في الجامعات... انظروا إلى شاشات السينما والتلفاز ولسوف ترون بأمّ أعينكم المهرجان اللوني، الذي وعد به (ماكس فاكتور)، يحيط بأجفان النساء والممثلات والمذيعات والموظفات والمضيفات وطالبات الجامعة وفتيات الدعاية والإعلان... وسواء صحّت الرواية أم لم تصحّ فإن واقع الحال يغني عن كل مقال...

وابنة (موشي دايان) قائد جيش العدو الإسرائيلي في معارك الخامس من حزيران، تتذكر هذا أو شيئاً منه وتكتب في مذكراتها أنها وزميلاتها اليهوديات يدهشن لإلحاح الفتاة العربية في المكياج... بل إن المرء وهو يتجول في جامعات الغرب ودوائره،

يجد النساء هناك ـ في الأعم لأغلب ـ غير متزيّنات... وكأنهن يقلن: ليس هذا مكانه... وللتزيّن موعده!!

عندنا، وكما تنبأ رسول الله ﷺ تختلط الأوراق، وتنسى بعض الطالبات والمذيعات والسكرتيرات، أنهن ذاهباتٍ لتلقّي العلم، أو إلقاء نشرة الأخبار، أو أداء المهمات الإدارية، وليس لقضاء سهرة في ملهى ليلي... أتذكر أيضاً أحد أساتذتي الفضلاء في جامعة بغداد في ستينيات القرن الماضي، الدكتور فاضل حسين (رحمه الله)، وهو على هدوئه المعهود، ينفعل على حين غفلة، ويتطاير الشرر من عينيه، ويصرخ موجهاً كلامه إلى إحدى الطالبات... كانت هذه، وليس ثمة مبرر للتفاصيل، في وضع لا يليق بحرمة الجامعة ولا بكرامة الإنسان...

والمهم من وراء هذا كله، أن الساعة لن تقوم، حتى تأخذ أمتنا بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبر وذراعاً بذراع... وها نحن ذا نرى...

دعوة لتشغيل العقل المسلم

(عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد»**)!!

إنها دعوة صريحة، وبالبنط العريض، لتشغيل العقل المسلم وفق الضوابط الاجتهادية... وهي من أجل منحه حرية الحركة تعده بالأجرَيْن إن أصاب، وبالأجر الواحد إن أخطأ...

أيّة عقيدة دينية في العالم فتحت الباب على مصراعيه أمام (الاجتهاد)... إزاء تشغيل العقل... كما فعل هذا الدين الذي يغري بإعمال العقل حتى لو انتهى الأمر به إلى الخطأ؟!

إن هذا المبدأ لا يقتصر على التعامل الفقهي والحالات الاجتهادية، ولكن يمضي لكي يغطي الحياة من أقصاها إلى أقصاها... بكل مفرداتها... بكل تفاصيلها... بكل حجيراتها وخلاياها... فالشريعة الإسلامية تسعى في بدء التحليل وفي خاتمته إلى الاستجابة لكل مطالب الحياة... إلى تلبية كل نداء من نداءاتها... ومعضلة من معضلاتها... ومطلب من مطالبها... ومن

أجل تحقيق هذا الهدف الكبير المتشعّب كان لا بدّ من نزول العقل لكي يعمل بأقصى طاقته في عملية التغطية هذه... مستمداً من ضوابط الاجتهاد... وقواعده الأصولية... ومن مقاصد الشريعة العليا وغاياتها الأساسية... ومن فقه الواقع... ومطالب الموازين... منهجه في العمل...

وعلى مدى تاريخنا الإسلامي نهض كبار علماء الأمة لكي يُعملوا عقولهم في أقصى وتائرها فاعلية، لكي يلاحقوا كل صغيرة وكبيرة من مطالب الحياة المتجددة، ويستجيبوا لتحدياتها التي تتدفق كالسيل... وبرز من بينهم رجال كبار تألقت عقولهم وهي تواصل السعي ليل ونهار من أجل الاستجابة لأسئلة الناس... ومتغيرات الحياة...

وهكذا يبرز على الساحة فقهاء متألقون كمالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل... وابن حزم الأندلسي والشاطبي... وابن تيمية وابن خلدون...

بعضهم ابتكر علماً (عقلانياً) جديداً في (أصول الفقه)، وبعضهم الآخر مضى منقّباً عن المقاصد العليا للشريعة الإسلامية... وفئة ثالثة ابتكرت مناهج جديدة في التعامل مع المطالب الفقهية... وفقه الواقع وفقه الموازين...

حركة عقلية ظلت الأمة الإسلامية زمن تألقها الحضاري تنبض بها، وتؤتي أكلها للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها... من أجل أن تحكم الحياة بالتعاليم والقيم والموازين الإلهية العادلة

القادمة من السماء بواسطة النبي الخاتم محمد ﷺ في كتاب الله ﷻ... وسنة رسوله ﷺ...

حتى إذا انطفأت جذوة الفاعلية الحضارية، وانكفأت الأمة على نفسها، وفقدت القدرة على التألّق والإبداع... وكفّ عطاء العقل... وجنّ خصبه... بسبب مما صنعته أيدينا... وبسبب الظروف المتلاحقة التي دُهيت بها الأمة من خصومها وأعدائها... توقّف هذا كلّه... إذ ما لبثنا أن وجدنا التيار العقلاني الهادر الذي أبدع واحدة من أكبر المكتبات في العالم عطاءً وخصباً فكرياً... يكفّ عن التدفق ويضمر وينتهي به الأمر إلى الدعوة إلى ما سمي بوقف حركة الاجتهاد...

وهي في حقيقة الأمر دعوة لتعطيل عمل العقل وشل فاعليته وإطفاء جذوته، واستبدال ذلك كله باستيراد نتاج العقل الغربي... وهو نتاج متشكّل في بيئة غير بيئتنا ومناخ غير مناخنا... بحيث إن إقحامه في مناهجنا التربوية والتعليمية، من بدء مراحلها الأولى وحتى دراساتها العليا، فعلتْ كما يقول المفكر المعروف ليوبولد فايس: محمد أسد فعل السُّمّ في حياتنا...

ومن ثم فإننا ما لم نوقف عملية استيراد الأفكار من الآخر، ونرجع ثانيةً لكي نبنيها بأنفسنا وفق قيمنا وثوابتنا ومعطياتنا الإسلامية التي لا تبخل علينا بالإجابة عن أي سؤال على الإطلاق... فلسوف نظلّ أسرى التقليد الأعمى، الذي يخرّج عبيداً وأتباعاً لا يملكون شخصيتهم الحضارية، ولا يتميزون بمعطياتهم

الأصيلة التي يمكن أن تضيف للبشرية ما يخرج بها من الضيق الذي تعاني منه، ومن العفن والفساد الذي يأخذ بأقطارها الأربعة...

والبداية الصحيحة دائماً... هي في اعتماد العقل... ومدّ النشاط الاجتهادي إلى كل مفاصل الحياة... كما علّمنا رسول الله ﷺ...

فئات أربع!!

(عن عبادة بن الصامت ﵁، قال: **بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة**، وزاد في هذه الرواية **وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم**)...

فما الذي يقوله دعاة الانهزامية وإلقاء السلاح تجاه الطواغيت والحكام الظلمة ومستلبي حقوق الإنسان؟... نعم... السمع والطاعة لمن يعمل بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، ويبذل وسعه في تنزيل مطالبهما على واقع الحياة بكل مفاصلها ومنحنياتها ومساحاتها... أما أولئك الذين يخرجون عن الطريق... ويشذون عن الالتزام بهذه القاعدة الكبرى... فلن نتقدم إليهم بباقات الزهور... وبلوي الرقاب... وبكلمة (نعم) على كل ما يقولونه أو يفعلونه... وبهذا نمدّ ليس فقط في أعمارهم وسطوتهم وجبروتهم... وإنما قبل هذا وذاك في توسيع مساحة الانشقاق والتمرد على مطالب هذا الدين... **(نقول بالحق حيثما كان لا نخاف في الله لومة لائم)**!

ورفض الطغيان يبدأ دائماً بقول كلمة الحق في وجهه...

بتجاوز التوجّس والخوف من سطوته وجبروته... ثم تجيء بعد ذلك كل الممارسات الثورية التي تمضي لاستئصاله كما يُستأصل الورم الخبيث من الجسد البشري...

بل إننا لنتذكر ها هنا حديث رسول الله ﷺ، الذي يحكي فيه عما سيشهده الزمن القادم بعد عصر الرسالة من تسنّم الطواغيت مقاليد الحكم والسلطان... فيسأله أصحابه وماذا نفعل يا رسول الله؟.. فيكون جوابه الحاسم: كما فعل أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام، نُشروا بالمناشير وعُلِّقوا على الأخشاب...

فمن أين جاءت هذه المقولة التبريرية المشؤومة، بكفّ يد المسلم عن مقاومة السلطان أو رفع السلاح في وجهه؟

ثمّة فئاتٌ شتّى من أعداء هذه الأمة وخصومها اجتمعت على صناعة هذه المقولة... وراح السذّج من أبناء هذا الدين، ومن وعّاظ السلاطين يعيدون القول فيها يوماً بعد يوم، حتى لكأنها أصبحت حقيقة مسلّمة لا تقبل جدلاً ولا نقاشاً...

هنالك المرجئة، الذين فكّوا الارتباط بين الإيمان والعمل، وتلك هي إحدى الخطايا الكبرى بحق هذا الدين الذي التحمت في نسيجه خيوط الإيمان والعمل، بحيث إن أحد القطبين يبطل إذا بطل القطب الآخر...

وهنالك المستشرقون الذين عُرف عنهم كيف يدسّون السمّ بالعسل... ويغروا بمقولتهم هذه جماهير المسلمين ليس فقط بكفّ مقاومتها لحكامها الظلمة، بل من إلقاء السلاح إزاء المستعمرين

أنفسهم... الذين جاؤوا لكي يدمّروا مقوّمات هذه الأمة ويستنزفوا خيراتها...

ثم ما لبثت فئة ثالثة أن لحقت بهم، تلك هي فئة الماركسيين... دعاة التفسير المادي للتاريخ، أولئك الذين أكدوا المقولة نفسها وألحّوا في تأكيدها حتى غدت أمراً واقعاً...

وثمّة بعض الفرق الإسلامية المناهضة لأهل السنة والجماعة ممن يحلو لها تصوير أبناء هذه الطائفة وكأن قد أصابهم الشلل والعجز التام في التحرك ضد حكامها الفاسقين...

أربع فئات تعاضدت لتأكيد هذه المقولة... ثم نجيء نحن بسذاجة بعض كتّابنا وباحثينا ونزعتهم التبريرية... بدءاً من الماوردي في (الأحكام السلطانية)، وانتهاءً بردود الفعل تجاه ما سُمِّي بثورات الربيع العربي، وكيف انعكست وبالاً على الأمة!!

وكما هو معروف، فإن الأفعال الخاطئة يجب ألّا تقود إلّا إلى ردودها الخاطئة التي تساويها في القوة، وتخالفها في الاتجاه... فهنالك دائماً المعايير العقدية المستمدة من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ تحمي أبناء هذه الأمة من هذا المنزلق الخطير...

وهي معايير يبلغ من عدلها وموضوعيتها أن تسلّط الضوء على جانبي كل قضية تتعامل معها، آخذةً بمبدأ (هذا وذاك) وليس (إما هذا أو ذاك)... ذلك أنها من علم الله جلّ في علاه، الذي هو أدرى بمن خلق، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء...

وقد عالجت بالتفصيل موقف القرآن الكريم من هذه المسألة في كتابي (الله والطاغوت)... أما موقف السنة النبوية والتعاليم التي تقدمها الأحاديث الشريفة... فهي كثيرة لا يكاد يحصيها عدّ، ويمكن للمرء أن يتابعها في كتب الحديث ومجموعاته الصحيحة...

السمع والطاعة... نعم... ولكن لمن؟ للقيادة التي تلتزم بكتاب الله جلّ في علاه وسنة رسوله ﷺ... وليس فيما وراء ذلك إلا التنديد بعذاب الدنيا والآخرة... وإلا المقاومة والرفض...

(عن معقل بن يسار رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: **«ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرّم الله عليه الجنة»**)...

(وعن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»)!!

السمع والطاعة حتى للعبيد والأحباش ما داموا يعملون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ... وتلك هي إشارة مدهشة على ما تسميه (الديمقراطيات المعاصرة) بالمساواة بين الناس وبفتح الفرص أمامهم لتولّي السلطة حتى لو كانوا من العبيد والزنوج والسود...

ولكن هذا كله ليس سوى أحد وجهي الصورة... والوجه الآخر هو رفض طاعتهم في اللحظة التي تشمّ فيها رائحة خروج عن مطالب هذا الدين وإبحار في الاتجاه المعاكس...

وتاريخنا الإسلامي من بدئه حتى منتهاه يجيء مصداقاً لهذه الرؤية!!

حماية الطفولة

(عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتُقبِّلون الصبيان فما نُقبّلِهم! فقال النبي: «**أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!.**»)...

تمضي رحمة هذا الدين، ونبيّ هذا الدين، لكي تلفّ الحياة والأحياء... تمضي حتى إلى عالم الطفولة البريئة، كما مضت إلى عالم الرجال والنساء، لكي تمنحها العطف والمحبة... لكي تحتضنها وتقبّلها وتستجيب لأشواقها ومنازعها... من أجل أن تنهض قائمة مستوية على سوقها تعجب الزراع لكي تغيظ بهم الكفار...

إن هذا الرجل البدوي، الذي جفّت في قلبه ووجدانه منابع الرحمة؛ يعلنها صريحة... قبالة من؟ قبالة رسول الله ﷺ ذلك المعلم والمربي الكبير، الذي يدرك بنور الله خفايا النفس البشرية ومطالبها الملحّة...

هذا البدوي الجافي يسأل رسول الله ﷺ: أتقبّلون الصبيان؟ وقبل أن يجيب الرسول يجابهه بموقفه الجافي ذاك... ما نقبّلهم!!

كأنه بذلك ـ وهو يتحرك بالاتجاه المعاكس لسنة الله في الخلق وما فطر الله عليه الناس صغاراً وكباراً... يريد أن يحسم الموضوع، وأن يتقرب بجفائه ذاك إلى الله...

فما أغربها من مفارقة!..

ولكن الرسول المربي يعرف كيف يردّ عليه فيشكمه كي لا يعود لمثلها مرةً أخرى، وكي يعلّم أتباعه المسلمين في كل زمن ومكان كيف يتعاملون مع الطفولة: «هل أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة»!!

تلك هي طبيعة البداوة في كل زمن ومكان: الجفوة والغلظ والقسوة في التعامل بين الإنسان والإنسان... وبين الكبار والصغار... ولهذا كان صاحبنا هذا يستغرب ويدهش كيف يكون تقبيل الصبيان... فهل بمقدور رسول الله ﷺ أن يزرع الرحمة في تلك الأرض الموات التي قتلها عطش آلاف السنين؟

أما هو وصحابته الكرام، وأجيال أتباعه في كل زمن ومكان؛ فإنهم مستعدون ـ ما دامت الرحمة الإلهية قد غُرست في نفوسهم ـ لأن ينشروا كهرباءها لدى كل من يتعاملون معه... بمن فيهم الصبيان محبةً وعطاءً وحناناً...

ومعروف في مبادئ التربية ومعطياتها، أن سوية الطفولة الناشئة لن تتحقق، وتتجاوز الانحراف عن الطريق ذات اليمين وذات الشمال، إلا بحقنها بجرعات متواصلة من التعاطف والرحمة والمحبة... ويجيء التقبيل والمداعبة... وحتى ممارسة اللعب مع

الأطفال... لكي يمضي بهم إلى بناء نفوسهم بناءً سليماً خالياً من التشوّهات التي طالما أصابت الكبار، وانحرفت بسلوكهم، بسبب من خشونة التعامل معهم وقسوته أيام الطفولة...

وإننا لنتذكر رسولَ الله ﷺ كيف أنه وهو يمارس أشدَّ عباداته قدسية وتجرّداً لله ﷻ... وهي الصلاة... كان يسمح لحفيديه الحسن والحسين رضي الله عنهما أن يتسلقا على كتفيه الشريفين فينهض بهما من السجود ثم يعود لكي يركع ويسجد وهما معلقان على كتفيه، دون أن تبدوَ منه أيُّ إشارة توحي بأنه غير راضٍ عن تصرّفهما ذاك...

يا الله!... كم لهذه المحبة... وهذا التعاطف... وهذا القبول بانفتاح الصدر والقلب، من مردود إيجابي على الطفلين الجميلين، اللذين سيقدر لهما أن يكونا سيدي شباب أهل الجنة رضي الله عنهما...

فممن نتلقى التعاليم؟ من هذا المربي الكبير الذي يدعو إلى تقبيل الأطفال واحتضانهم، أم من ذلك البدوي الجافي الذي يدهش لممارسة كهذه، فيمتنع عن التقبيل؟!

فما من كائن يخفق في جنبات هذه الحياة الدنيا، رجلاً كان أم امرأة... كبيراً أم صغيراً... شيخاً أم صبياً... إلا وَوَجد تحت مظلّة هذا الدين من يحميه... من يؤكد حقوقه ومطالبه... من يمنحه من صيغ التعامل الإنساني في أقصى حالاته رقةً وعذوبةً، الكثير الكثير مما لا تكاد تجد عشر معشاره لدى الآخر، رغم ادعاءاته الكاذبة...

فها هم الغربيون المتحضرون... يهتكون أستار المرأة ويحوّلونها إلى أداة للجنس والمتعة والدعاية والإعلان... بل يمضون إلى أبعد من هذا فيهتكون أستار الطفولة البريئة بالشذوذ الجنسي الذي راحت وتائره تزداد حدّةً يوماً بعد يوم...

بل إنهم ليهتكون أستار شعوب بكاملها، فيعرضونها للموت والدمار بأشد الأسلحة فاعليةً وفتكاً من أجل تأكيد تفوّقهم في هذا العالم وتسلّطهم على مقدراته...

ومرةً أخرى... من هو الذي يحمي إنسانية الإنسان؟!

٢٤

هكذا يجب أن نكون... وإلّا!!

(عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً**» ثم شبك بين أصابعه).

يتساءل الكثيرون عن أولئك الذين تهمّهم قضايا الأمة الإسلامية... ويكتب الباحثون... ويحلل المفكرون... منطلقين جميعاً من حال الأمة الراهن من التمزّق والتطاحن والتناحر والحروب الأهلية، والدمار... والموت الذي يحصد يومياً مئات المسلمين وألوفهم...

ما هو السبب الذي يكمن وراء هذه المأساة، التي ما ابتُليت بها أمة من الأمم في الماضي والحاضر... لماذا هذا الأوكازيون المعلن للدم الإسلامي المسفوك صباح مساء؟ ولماذا لا تكفّ السكين عملها في حصد أرواح الناس بغضّ النظر عن أفعالهم الخيِّرة أو الشريرة... ولماذا أصبحت جغرافية العالم الإسلامي أكثر البيئات في العالم استعداداً للاستعمار القديم والجديد... بحيث إنه لم تبق ثمّة بقعة في هذا العالم لم يصلها الجزار الإنكليزي أو الفرنسي أو الإسباني أو البرتغالي أو الهولندي أو

البلجيكي... ولم تلاحقها حبال رعاة البقر الأمريكيين... إلا مساحات صغيرة لا تكاد تُرى... وهي استثناء للقاعدة الأعمّ والأشمل...

ولماذا هذا الانتظار اليائس للخلاص من هذا كله... هذا الأمل المستحيل بوقف المذبحة التي تطال دماء المسلمين... وأموالهم... وأعراضهم؟ صباح مساء... سواء أكان هؤلاء المسلمون في ديارهم الأصلية، أم كانوا أقليات منتشرة هناك وهناك؟! ولماذا؟... ولماذا؟

والجواب على هذا كلّه يقودنا إلى الحديث النبوي الشريف الذي يتصدر هذا المقال... لقد أراد لنا هذا الدين... وأكّد رسوله ﷺ مراراً وتكراراً على أن المؤمن للمؤمن يجب أن يكون كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً... ومن أجل إيضاح هذه الحقيقة الأساسية حوّلها الرسول ﷺ إلى وسيلة إيضاح بأن شبك بين أصابعه!

فهل أصغَتْ أمتنا جيداً إلى هذا الخطاب؟ هل أصبحَتْ كما أراد لها رسول الله ﷺ كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً؟

لا والله... ومنذ بدايات تشكلها الأولى، رفض العديد من جماعاتها الاستجابة لهذا النداء الذي به وحده تُبنى الأمم، وتزدهر الحضارات... إذ ما لبث دعاة الرجعية والبداوة والتخلّف، وكارهو ازدهار الدول والعمران البشري والتقدم الحضاري أن وقفوا بالمرصاد لحركة الدعوة الإسلامية بصيغة حركة النفاق في العصر المدني، وحركة الردة والتنبؤ في عهد الخليفة أبي بكر

الصديق رضي الله عنه، وحركة الفتنة العمياء في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وانتهت بمقتله بتلك الطريقة البدوية القاسية الجافية... وحركات الخوارج التي أطاحت بخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومضت لكي تعيث في الأرض فساداً... عبر القرون الطوال...

ثم ما لبثت الأمة الإسلامية أن تعرضت لجملة من التمزقات العصبية والإقليمية والمذهبية، كان رسول الله ﷺ قد تنبأ بها وحذّر منها بتأكيده أن هذه الأمة ستتشظى إلى ما يزيد عن السبعين فرقة... واحدة منها فقط هي الناجية يوم الحساب...

فأين هذا كله من (البنيان) الذي يشدّ بعضه بعضاً؟!

إنه الإبحار في الاتجاه المعاكس، حيث المعاول القاسية التي تنزل في البنيان وتهدمه على رؤوس أصحابه، وتفرّق المنتمين إليه شذر مذر...

وها هو ذا العصر الحديث يعطينا الصورة الواضحة لهذا كلّه عبر القرنين الأخيرين... بل عبر العقدين الأخيرين حيث ازداد التمزق والتقاتل والتطاحن بين أبناء الأمة الواحدة، فتجرأ عليها الخصوم والأعداء وراحوا هم الآخرون يُعملون فيها سكاكينهم الحادة صباح مساء... بحيث إنه ما من نشرة إخبارية واحدة على الإطلاق... خلت من الإشارة إلى سفك الدم المسلم مجاناً وبأرخص الأسعار...

فلا حول ولا قوة إلا بالله...

إننا إذا أردنا أن نتجاوز هذه الحلقة الدموية المفرغة، أن

نتمرّد عليها، ونكسر طوقها القاسي.. ونخرج إلى العالم أمةً قوية فاعلة متحضرة... فإن علينا أن نصغي جيداً لتعاليم نبينا وقائدنا ومعلمنا ومربينا محمد ﷺ... وها هنا يجيء تعليمه كالبلسم الشافي لجراحات الأمة... أن ترجع إلى توحُّدها... أن تصير كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً... وأن تتذكر كيف فعلت هذه الوحدة فعلها في الأجيال الأولى التي قُدّر لها أن تقود العالم وتبني حضارته...

وبدون ذلك فإننا سوف نمضي أكثر فأكثر صوب القاع... صوب مزيد من التشرذم والتطاحن والتمزق... وإذا كنا في بدايات القرن الماضي عشر دول أو حتى عشرين... فإننا قد نغدو أربعين دولة أو خمسين وفق منطوق تجزئة المجزّأ الذي تتآمر به علينا القوى الكبرى...

فحذار...

٢٥

أقصى درجات الوعي

(عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرّتين»**)!!

ونحن أمة لُدغت أكثر من مرة من الجحر الواحد... أفراداً وجماعاتٍ وأحزاباً وشعوباً وحكوماتٍ وجماهير... فنزفت كثيراً، ورأت بأم أعينها نتائج أخطائها الكبيرة... والخطأ ـ كما يقول الداهية الفرنسي العجوز تاليران ـ أكبر من الجريمة...

ولم تتعظ... ومضت وكأن لم تصبها اللدغة واللدغتان... مضت مكشوفة الظهر لكي تتلقى المزيد من اللدغات... وكأنها قد آلت على نفسها أن تضع على آذانها شمعاً أحمر، كي لا تنصت لتعاليم رسولها العظيم ﷺ، الذي يعرف برؤيته النبوية الثاقبة ما يجب أن تصنعه، وهي تتعامل من الخبرات والتجارب وتجتاز حيثيات التاريخ...

أمة أصابها الصمم... فلم تعد تكترث للأصوات المخلصة التي تسعى لإنقاذها من التردّي والسقوط... فكم من صراع بين هذه الفئة من المسلمين وتلك، يشتعل على حين غفلة دونما سبب

منظور... يعود ثانية وثالثة ورابعة... و... و... إلى الاشتعال، رغم غياب الأسباب!! وكم من انتكاسة لحقت بهذه الجماعة الإسلامية، أو تلك، بسبب من ترك ظهرها مكشوفاً لمخابرات الأجهزة الحاكمة، فتلقت الذبح من الوريد إلى الوريد... وعادت مرةً أخرى، ومرتين وثلاثاً، لكي تمارس نشاطها المضاد بظهورٍ مكشوفة لأمن الحكام والطواغيت ومخابراتهم... وكم من خطأ فادح وقعت فيه هذه المنظمة أو تلك، مرة ومرتين وثلاثاً، دون أن تتعلم منه، فلا تسمح له بأن يكرر مأساته المرة والمرتين والثلاث...

وعبر بوابة السوء هذه دخل علينا الخصوم والأعداء من خارج الديار الإسلامية بصيغ الغزو والاستعمار والاستعباد... ومن داخلها على أيدي حكامنا وطواغيتنا... وتلقينا في الحالتين جملةً كبيرة من الضربات الموجعة، لا زلنا نعاني من ويلاتها حتى اللحظات الراهنة!!

ورغم أن كتّابنا ومفكرينا يؤلفون البحوث والكتب يوماً بيوم وساعةً بساعة... ورغم ـ أن سيول بحوثهم ومؤلفاتهم تتدفق على الأسواق منبهة أبناء هذه الأمة إلى ما يُراد لها من خصومها في الخارج والداخل، وكأنها تريد أن تذكّرهم بحديث الرسول المعلم ﷺ: **«لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»**... فإننا لم نلتفت لتحذيرهم، وببساطة، لأننا أمة لا تقرأ!!

ورغم أن كتاب الله جلّ في علاه، وهو يتحدث عن الجهاد في سبيله، وعن تحركات المقاتلين لتدمير قوى الطاغوت في

العالم، يطلب منهم وهم يؤدون الصلاة في ساحات القتال أن يأخذوا حِذرهم... يطلبها مرتين... رغم أنهم دخلوا بصلاتهم تلك في حماية الله ﷻ، ومارسوا عبادتهم تحت خيمته... لكنه ينبههم أن يأخذوا حذرهم مرتين: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

ما معنى هذا؟ أليس هو حماية المؤمن في هذا العالم من ألا يلدغ من الجحر الواحد مرتين؟ كما علمنا رسول الله ﷺ؟ أليس وضعه في حالة إنذار من الدرجة (ج) وفي أقصى حالات الوعي؟

ليس هذا التعليم الخطير ذو البعد الاستراتيجي في التعامل مع حيثيات الزمن والمكان والممارسات البشرية وحده... مما لم نلتفت إليه ونضعه في بؤرة المنظور ونحن نمارس نشاطنا... ولكنها شبكة من التعاليم النبوية، هذه إحداها، مما لو أخذنا بها، انصتنا جيداً لمطالبها، التزمنا بما تريده، لكان حالنا غير الحال التي آلت إليها هذه الأمة التي تُهدر دماؤها مجاناً صباح مساء... والتي تُستلب حقوقها مجاناً صباح مساء... والتي تُفترس حتى لقمتها الطيبة... صباح مساء...

فما أروع تعاليمك يا رسول الله!.. لكأنك برؤيتك النبوية الثاقبة التي تتجاوز حدود الأماكن والأزمان، وتتحرر من أسر الجغرافيا والتاريخ... قد امتلكت الخبرة الموغلة في نسيج السنن العاملة في التاريخ... السنن التي ترفع الأمم وتحصّنها... وتلك التي تنحدر بها وتفتّتها وتخرجها من التاريخ... ومن ثم تجيء تعاليمك وأحكامك مطابقة تماماً لما كان، ولما هو كائن، ولما سيكون...

ويوم أن قدرت هذه الأمة أن تستوعب تعاليمك تلك... تمكنت من الإمساك بقوانين الحركة التاريخية ووظّفتها لحسابها... فسادت بها العالم لأكثر من عدة قرون... وأصبحت سيدة الأمم في السلم والحرب... وبنت حضارتها المتفوقة التي شهد لها خصومها أنفسهم بأنها قدمت التأسيسات المبكرة للحضارة الغربية المعاصرة.

وعَوْداً على بدء... فإننا إذا أردنا أن نسترجع دورنا في العالم، فإن علينا ابتداء أن نتشبث بتعاليم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لكي لا نُلدغ من الجحر الواحد عشرات المرات ومئاتها!!

لعنة تبديل خلق الله...

(عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: **لعن النبي ﷺ المخنّثين من الرجال والمترجّلات من النساء، وقال: «أخرجوهم من بيوتكم»**)...

وها نحن في زمننا البئيس هذا نلتقي يومياً في شوارعنا ومؤسساتنا وجامعاتنا ومدارسنا ودوائرنا بحشود من المخنّثين من الرجال، وبحشود أخرى من المترجّلات من النساء... وقد نستقبل بعضهم في بيوتنا فلا نهينهم ولا نخرجهم منها...

والحالة المرضية السرطانية تزداد انتشاراً وسعاراً... يوماً بعد يوم... ويزداد معها المخنّثون من الرجال والمترجّلات من النساء...

إنها ولا ريب واحدة من المحاولات البائسة لتغيير خلق الله... أن يكون الرجل رجلاً وأن تكون المرأة امرأة... وهي اللعنة التي قدمت إلينا من ديار الغرب، وبسبب من تقليدنا الأعمى لما يأتينا من هناك، اندفع شبابنا عن غير وعي ولا تدبير لكي يمارسوها، فيقلبوا بممارستها خَلْقهم الأصيل الذي أراده لهم الله تعالى من أجل تميّزهم وكرامتهم... فيصبح الرجل منهم أشبه بالنساء،

وتصبح المرأة منهم أشبه بالرجال... وهي حالة، فضلاً عن كونها اختراق للنظام الإلهي المحكم بخلق الزوجين في هذا العالم، وإثارة الارتباك في وظائفه الأساسية... فانها تثير التقزز لدى الأذواق التي لا تزال على طهرها ونظافتها...

فما من شاب يضع القراريط الأنثوية في أذنيه... ويتجمل ويتخطط بالمساحيق والأصباغ... ويسير رخواً متميّعاً... إلا وأثار في نفوس الآخرين القرف والاشمئزاز، لأنه خروج قبيح عن قاعدة الحياة... وما من امرأة تلحّ في قصّ شعرها، متشبهة بالرجل، وتلبس البنطال بدلاً من الفستان، وتسير بخطوات صلبة كما يفعل الرجال... إلا وأثارت في نفوس الآخرين القرف والاشمئزاز لأنها خروج عن قاعدة الحياة...

ومع ذلك فعجلة الشرّ تمضي، وإغواء الشيطان يجرّها أكثر فأكثر نحو المزيد، فإذا بالحالة الاستثنائية تزداد اتساعاً حتى لتنذر باليوم الذي ربما تصير فيه القاعدةَ وغيرُها الاستثناء... وحينذاك فلنبصقْ على الحياة التي تتدنى فيها الأذواق إلى هذه الدرجة، ويبدَّل خلق الله...

فإذا ما عدنا ثانيةً إلى جذور البلاء: الممارسة الغربية الجانحة، والتقليد الشرقي الأعمى، فاننا سنعثر على واحد من النماذج الفريدة من نوعها، وهي أشبه ما تكون بوسيلة إيضاح للحالة الملتوية إياها...

إنها الأديبة الفرنسية المعروفة (سيمون دو بوفوار) التي تقول

بالحرف: (إن المرأة لا تخلق امرأة بل تصبح امرأة... فليس هناك مصير بيولوجي أو نفسي أو اقتصادي يحدّد الدور الذي تؤديه أنثى البشر في المجتمع... إن المدنية ككل هي المسؤولة عن إنتاج هذا الكائن الذي يوصف على أنه أنثوي)!!

أيُّ تبديل هذا لخلق الله؟! وأيُّ منطلق يتناقض ابتداء مع التفرُّد المؤكد للمرأة على المستويات البيولوجية والنفسية والاجتماعية، وهو التميّز الذي يؤكده كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ ويتعاملان معه من أكثر من زاوية، ليس من أجل وضع (الأنثى) في درجة أدنى من الرجل، وإنما من أجل الاستجابة لطبيعة مطالبها الأساسية ووظيفتها الأولى، وهو الأمر الذي يجعل المرأة على المستوى الإنساني، ليس فقط في حالة توازٍ مع الرجل يكمّل من خلاله أحدهما الآخر، بل إن المرأة قد تحتل موقعاً أعلى من الرجل في كثير من الحلقات الأساسية للحياة البشرية، كما يلحظ من معطيات هذا الدين في العقيدة والتشريع والسلوك على السواء...

وعلى أية حال، فإن (سيمون دو بوفوار) انسياقاً وراء نزوعها المضاد للأنثى، فضّلت أن تظلّ عشيقة لرفيقها (جان بول سارتر) لمدى نصف القرن على أن تصير زوجة له، عندما طلب منها الزواج، معتقدة أن العلاقة التي تجمعهما أقوى وأهم من (ورقة) تحدد هذه الرابطة!

بل إن (دو بوفوار) اصطرعت مع (الأنثى) باتجاه آخر لا يقلّ

خطورة، فإذا كانت في الحالة السابقة ترفض الرابطة الزوجية، التي هي أساس كل علاقة إنسانية بين الرجل والمرأة، فانها في الحالة الثانية، رفضت أن تصير المرأة (أمّاً)، وأن تكون كائناً يحرس استمرارية الحياة بحكم قوانين الفطرة. ففي عام (١٩٧١م) وقّعت مع (٣٤٠) امرأة بياناً يفيد بخضوعها لعملية إجهاض تحدياً للقانون الفرنسي آنذاك!!

ليس هذا فحسب، بل إنني وانا أتجول مع صديق لي في شارع الشانزليزيه الشهير في باريس عام (٢٠٠١م)، كان يلكم جملتي العصبية منظر نشاز يتكرر بين الحين والحين وبين خطوة وأخرى... حيث يلتفت إليَّ ذلك الصديق قائلاً: انظر إليهما إنهما متزوجان زواجاً مِثلياً... أي زواج الرجل بالرجل... فإذا بأحدهما يضع (الميك أب) والمساحيق على وجهه، والأقراط النسائية في أذنيه ويسير إلى جوار زوجه مائلاً متميّعاً!! وهو يتلقى القبلات منه بين لحظة وأخرى أمام حشود الناس!!

«أخرجوهم من بيوتكم» وكأنه ﷺ يريد أن يقول: أخرجوهم من حياتكم... لاحقوهم... ولا تبقوا لهم أثراً... ذلك أنهم أشبه بالحالة السرطانية، التي لا تكفُّ عن الانتشار بمجرد أن يغفل عنها الإنسان...

حرب على الخرافة...

(عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«لا طيرة، وخيرها الفأل»**، قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: **«الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»**)...

ونحن نتناقل عن الغربيين تشاؤمهم من الرقم (١٣)... ومن القطط السوداء... ومن... ومن... ونسعى إلى تقليدهم، والجري وراء ترّهاتهم حذوك النعل بالنعل...

ومن قبلهم الجاهليون، الذين كانت حياتهم تعجّ بخرافات كهذه... فكانوا يتطيّرون من حالات معيّنة، ويتفاءلون بحالات نقيضة أخرى... وقد يغيّر هذا الاعتقاد الباطل مجرى حياتهم ويقلبها رأساً على عقب...

ويجيء رسول الله ﷺ لكي يعلن الحرب على الخرافة بشتى صيغها ومفرداتها، ويستأصلها من الحياة مستبدلاً إياها بقوة الكلمة!! التي كانت في البدء... الكلمة الصالحة يسمعها أحدنا فيبني بها الحياة، ويمضي بها قدماً صوب المزيد من الإبداع والإعمار...

(لا طيرة)... فلا تشاؤم أو تفاؤل لا يقومان على أساس، ومن وراء (الطيرة)، وقبلها وبعدها، جملة من الممارسات الجاهلية الخاطئة التي تندرج كافة تحت مظلة الخرافة، التي جاء هذا الدين لكي يعلن الحرب عليها ويستأصلها من الوجود... من مثل الأنصاب والأزلام... ورمي الأحجار... والتنجيم... ومطالع الكواكب والنجوم، كذلك الذي تتاجر به، وتضلّل جماهير القراء، معظمُ المجلات التي تصدر في العصر الحديث... وهي جميعاً من الممارسات التي لا تستند إلى دليل عقلي أو علمي على الإطلاق...

وتمضي حملة الرسول المعلّم ﷺ ضد الخرافات والأضاليل، فتعلن في أكثر من حديث شريف رفضها المطلق للسحر بمختلف صنوفه وأشكاله... ولتسخير الجان والشياطين عبر شبكة مضللة من الفاعليات التي يراد بها كسب إعجاب الناس، ودهشتهم، وسَوْقهم من ثم إلى الانحراف عن الجادة السوية والكفر بالله ﷻ...

ولقد أعلن القرآن الكريم، من جهته، الحرب على خرافة السحر في جملة من الآيات، هذه إحداها: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالقرآن الكريم... ورسول الله ﷺ يريدانها حياة مستقيمة خالية من الالتواءات، ومن دَخَل الجان والشياطين وإفكهم وتضليلهم... يريدانها حياة (عقلانية) ـ إذا صح التعبير ـ ترفض كل ما من شأنه ألا ينسجم ومعطيات العقل والفطرة البشرية السليمة... وتدين كل أولئك الدجّالين، والمشعوذين، والنصابين، والسحرة، الذين يريدون الانحراف بها عن مجراها الوضيء الأصيل...

إن السحرة والمنجّمين يعتمدون محاولات الجن والشياطين لاستراق المعلومات من الملأ الأعلى... ولهذا وضعت الحواجز في طريقهم (رصداً)... ومع ذلك فإنهم قد يحصلون أحياناً ـ ولحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ـ على بعض المعلومات، فيسخّرهم السحرة والمنجّمون لإيصالها إلى الناس، وإيهامهم بقدرتهم على اختراق الغيب، والاطلاع على ما سيشهده العالم من وقائع وأحداث... ولهذا تأتي معلوماتهم هذه ـ كما هي الحال في كتاب المنجم العالمي الشهير نوسترادامُوس ـ وهي تنطوي على خليط من الوقائع المؤكدة والغبش والمعمّيات والضباب... وهم في نهاية الأمر يوظفون معلوماتهم هذه لتعبيد الناس المغفلين حيناً، ولجرّهم إلى الكفر والفسوق حيناً آخر... ولتحقيق الكسب حيناً، ولتبوّؤ المراكز المتقدمة لدى أصحاب السلطان حيناً رابعاً، والاستمتاع الشامل المنحرف حيناً خامساً... بهذا الذي يضللون به الناس، ولجلب إعجابهم والالتفاف حولهم، وللوقوف بوجه دعوات

الأنبياء (عليهم السلام) وإعلان الحرب عليها، امتداداً لموقف إبليس الذي أعلن الحرب ابتداءً: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٣]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وصدق الله العظيم

الموازنات الإلهية

(عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء»**).

وتلك هي سنة الله في الخلق والعالم... ونواميسه الثابتة في الكون والحياة... التوازن الذي تتقابل فيه الأضداد ـ وليس بالضرورة أن تتصارع كما تدّعي المادية الديالكتيكية الخائبة ـ ولكن أن تنسجم وتتوافق ويستجيب طرفها الأول لمطالب الطرف الثاني وضروراته في الحياة والأشياء على السواء...

إنها (الزوجية)، التي طالما حدّثنا عنها كتاب الله جلّ في علاه: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ذَٰلِكَ﴾ [الحج: ٥]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا۟﴾ [طه: ٥٣]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١].

هذه الأزواج التي يفيء بعضها إلى بعض، ويسكن بعضها إلى بعض، ويكمّل بعضها البعض، ويلقّح بعضها البعض الآخر، من أجل أن تمضي الحياة في أقصى حالات التحفّز والوفاق والانطلاق...

وثمّة تلك الإشارة القرآنية المدهشة التي ترد في الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]... ففي زمن تنزُّل القرآن الكريم كان الكثير من الحقائق العلمية خافياً عن الأذهان، ولسوف يُقدّر له أن يتكشّف بمرور الزمن وبجهود العلماء الكبار، لكي ما تلبث البشرية أن تجد نفسها قبالة ذلك التطابق المدهش والمعجز بين تلك الكشوف وبين ما سبق وأن تنزّل به كتاب الله جلّ في علاه الذي لا تنقضي عجائبه.

فإذا بنا نجد كيف تتشكّل فيزياء الذرّة من شبكة من العلاقات الزوجية بين السالب والموجب، وبين الإلكترون والبروتون... وبين حشد كبير من الثنائيات التي تتقابل فيها الأزواج... وتبني الوجود؟!

ها هنا في حديث رسول الله ﷺ تأكيد على البعد نفسه... فما أنزل الله ﷻ من داء إلا وأنزل له شفاء... من أجل أن

يشمِّر الإنسان عن ساعديه، ويبذل جهده المتواصل بحثاً عن شفاء كل داء، والعودة بالحياة البشرية إلى سويّتها الطبيعية!!

إنه بقدر ما هو إشارة إلى العدل الإلهي الذي يحكم الحياة، فإنه دعوة مباشرة وغير مباشرة، إلى أن تشهد المجتمعات البشرية حشوداً من الأطباء والصيادلة والكيميائيين والعلماء، من أمم شتى، لملاحقة كل داء وإيجاد سبل العلاج الملائمة له...

وفي يوم ما، زمن تألُّقنا الحضاري، دفعَتْ هذه الحقيقة إلى ظهور جملة من الأطباء والصيادلة الكبار، الذين عكفوا على ملاحقة الأوبئة والأمراض ووضعوا لها العلاجات المناسبة: الرازي، ابن الهيثم، ابن البيطار... وغيرهم كثيرون... كانت كشوفهم ومعطياتهم تدرّس في الجامعات الأوربية في لندن وأكسفورد وباريس وبرلين وروما... زمن النهضة الأوربية...

ولكن، ويا للأسف، ما لبثت أيدينا أن ارتخت، وكفّت عجلة الملاحقة العلمية للحالات المرضية عن الحركة... وتركنا الساحة للغربيين، الذين شمّروا عن ساعد الجد، وبذلوا جهدهم المكافح لتحقيق هذا الهدف العزيز... والأمر في الحالتين يأتي مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ: **«ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء»**...

ويتوهم كثير من الناس في ديارنا أن ذلك الأمر يقتصر على طب الأعشاب، الذي بولغ في مفعوله إلى حدّ غير معقول... بل إن بعض المتاجرين به، وأقولها صراحةً: (المتاجرين) لأن مؤلّفاتهم في هذا الميدان لقيت رواجاً كبيراً، وأصبحت (علاجاتهم) حتى في

البرامج التلفازية، تدّر عليهم ربحاً وفيراً، بحيث إنهم سمَّوا محاولتهم هذه بالطب البديل... فكأنها دعوة لاستبدال الطب الأصيل الذي يعتمد العقاقير والأدوية الكيميائية الفاعلة، بهذا الطب الذي يعتمد على العشبيات التي فُتحت لها الأسواق والصيدليات المتخصصة... ولم يتواضع أحد من هؤلاء القوم فيسمِّي هذا بالطب الموازي، احتراماً ـ على الأقل ـ للعلم الجاد والبحث الأصيل...

مهما يكن من أمر، فإن الكشفين معاً... الكشف الكيميائي والكشف العشبي يتعاضدان في نهاية الأمر، لتقديم الشفاء لما يعانيه الناس من أمراض شتى... لا يُستبدل هذا بذاك، ولا يُغني أحدهما عن الآخر، وإنما هما يمضيان معاً لتقديم الشفاء للمرضى والمأزومين...

ويبقى قبل هذا، ومعه وبعده، أن هذا العالم محكوم بإرادة الله جلّ في علاه وسننه الزوجية وتوازناته المدهشة التي تبدأ بما لا تراه العيون، وتمضي لكي تحرّك النجوم والأجرام والسدم والمجرات الكبرى وفق نظام محكم لا يندّ لحظة واحدة عن إرادة خالقه أو يخرج عن أمره... جلّ في علاه...

وصلى الله تعالى عليك وسلّم يا رسول الله... أيها الطبيب الكبير وأنت تدلّنا على هذا الناموس الذي يعرف كيف يحفز العقول لمواصلة البحث عن (الشفاء) الذي أنزله الله تبارك وتعالى قبالة كل (داء)!!

حرب على التزييف

(عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»، ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئاً، فقال: ألا وقول الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)!!

إذا أردنا الحق... فإن الرسول المعلم يعلن في هذا الحديث حربه على التزييف عبر ثلاثة من أخطر حلقاته، وأكثرها تأثيراً في حياة الإنسان فرداً وجماعة...

الإشراك بالله... عقوق الوالدين... وقول الزور...

إنه يلمّ هذه الخطيئات الكبرى الثلاث في سياق واحد من أجل استنفار الهمم الإسلامية لإعلان الحرب عليها واستئصالها من ضمائر الناس وعلاقاتهم الاجتماعية، قبل أن تنشر سُمَّها الزعاف فتمضي بالحياة إلى القاع الذي لا يتوافق بحال من الأحوال مع كرامة الإنسان، الذي قُدّر له أن يكون سيداً على العالمين: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فأما **الشرك**، فهو الخطيئة الكبرى والظلْم الأعظم... ظلم للذات الإلهية المتفردة، المتوحدة، المتعالية، المنزهة، القديرة، الفاعلة المريدة، الحاكمة التي لا ولي لها من الذّل ولا تشرك في حكمها أحداً... ظلم بإحالة الجزئي على الكلي، والمحدود على المطلق، والفاني على الخالد، والناقص على الكامل، والمخلوق على الخالق، ومساواتهما ومنحهما معاً أسماءَ وصفاتٍ وأفعالاً واحدة، بينما وحدانية الله جلّ في علاه تتفرّد بأسمائها وصفاتها وأفعالها تفرّداً كاملاً مطلقاً منزّهاً عن أي قدر من التشبيه أو المقاربة، متعالياً بالضرورة التي لا تقبل أي مماحكة أو جدلاً... هذه الوحدانية التي تتجرأ المخاليق فتضع في مصافها، أو قريباً منها، ظواهرَ وموجوداتٍ ورموزاً وأوثاناً وصنمياتٍ وطواغيتَ وأرباباً... هي أولاً وأخيراً من خلق الله ﷻ، وفي قبضته... لا تعزب عنها... ولا تستطيع فراراً من حكمها القاهر حتى لو آوت إلى نفق في الأرض، أو ابتغت سلماً في السماء، أو سعت للنفاذ من أقطار الكون...

ظلم للحقّ الذي يتأبّى على الكذب والتزوير، وللحقيقة التي ترفض التدليس والتشويه... ظلم للإنسان نفسه، وتدمير لفطرته النقية، وتجاوز لبداهاته الحسية والعقلية والوجدانية على السواء...

ظلم لجماهير الناس باستلاب حريتها العميقة وإرغامها على الخضوع للرموز التي يصنعها الظلم العظيم... للطواغيت والأرباب التي تحكم قبضتها على الرقاب، وتمارس طغيانها وتألُّهها في الأرض بألف صيغة وأسلوب... ولكنها جميعاً تنسج بنول واحد،

يستمدّ من خيوطٍ واحدةٍ وينتهي إلى مصير واحد هو استعباد الإنسان، وتحويل السعي البشري إلى إقطاعية كبيرة يتنعم فيها الطاغوت، ويتلوى الأتباع مسغبة وقهراً ومذلّةً وجوعاً واستلاباً...

ظلم لحركة التاريخ وقوانينها وسننها ووفاقها مع حقائق الكون والوجود التي تمضي بإيقاع واحد، وتمضي صوب هدف واحد، فتزداد فاعليةً وألقاً وعطاءً، من أجل جعلها ترتطم والنواميس، فتتعارض وتتفتت وتفقد القدرة على الأداء، وتنتهي في آخر المطاف إلى تلك القطيعة المرة والفصام النكد بين التاريخ والناموس...

ترى كم من المصائب والمتاعب والأحزان والخسائر والويلات والتعاسات والآلام تجرعها الإنسان عبر تاريخه الطويل، وهو يرغَم على هذا التحوّل، أو يختاره ابتداء، فيخرج إلى الفوضى والتسيّب والارتجال، ويفقد توازنه... ويضيع؟!

أليس هو الظلم العظيم الذي يبدأ بالكذب على الحقيقة الكبرى، لكي ما يلبث أن ينسحب على كل الممارسات والخبرات، مهما صغرت ودقّت وبعُدت عن العيان؟

أليس هو الظلم الذي يلفُّ الكونَ والحياة والخلائق والموجودات، ويرغمها على أن تترك مساراتها المحكمة لكي ترتطم وتتفتت وتتبعثر فتضيع؟

وأما **عقوق الوالدين**، فهو الإبحار ضد نواميس الله ﷻ في الحياة الاجتماعية... تلك التي أريد لها أن تبني الأسرة الإسلامية على قواعد المحبة والتوافق والانسجام، وعلى طاعة الأبناء للآباء

والأمهات... وعلى الكلمة الطيبة والموقف الحاني، الذي يتحتم أن يصدر عن الأبناء تجاه أولئك الذين بذلوا السنين الطوال، وتحمّلوا كل صنوف الأذى والعذاب، من أجل أن يصلوا بأبنائهم إلى بر الأمان... أفيبيح هؤلاء لأنفسهم أن يتمردوا على أبويهم، وأن يعقّوهم... وأن يجابهوهم بالكلمات الحادة التي تنزل على جملتهم العصبية كالخناجر والسكاكين... إلا أن يكونوا قد التووا نفسياً وخلقياً... بما يسمح لهم أن يمارسوا هذا التزييف المحزن في علاقاتهم مع آبائهم وأمهاتهم؟!

إنها على أية حال وضعية شاذة في العلاقة الأسرية بين الطرفين... وإن صرنا في العصر الحديث، حيث تمّ تزييف الكثير الكثير من الحلقات الاجتماعية في حياتنا، نشهد تزايدها بشكل ينذر بالويل والثبور... ويقود إلى تفكيك، بل إلى تدمير القاعدة الأساسية في الحياة الاجتماعية: ألا وهي الأسرة...

وأما ثالثة الكبائر، فهي **قول الزور**... أي الشهادة الكاذبة تجاه الطرف الآخر... تلك التي تقلب الحقائق رأساً على عقب، وتجعل الأسود أبيضاً والأبيض أسود... فتفترس حقوق الناس بسكينها الحادة التي تعتمد تزييف الوقائع، والتدليس عليها، من أجل تحقيق مصلحة ما على حساب الآخرين...

فهل ثمّة أقبح من هذا السلوك المرذول في التعامل بين الناس عبر دوائر العدل والقضاء؟ هل ثمّة من تزييف أكثر خطورة من هذا التزييف الذي يقود إلى افتراس حقوق الآخرين؟

والذي يقرأ بعض الروايات ويشاهد عدداً من المسلسلات التلفازية يعجب لهذا التقابل المفتعل بين المحامي والمدعي العام، وكأنه قد كُتب عليهما أن يقف أحدهما قبالة الآخر وكأنهما خصمان أبديان لا يمكن أن يلتقيا... حتى لقد أصبح من قبيل المسلّمات الخاطئة أن يفنّد أحدهما أدلة الآخر ويهدم كل حججه، حتى ولو كان بعضها على الأقل مصيباً، حتى ولو كان أحد الطرفين مقتنعاً ـ في باطنه ـ بوجهة نظر خصمه أو غريمه في هذه المسألة أو تلك...

والحاكم الذي يتحتم أن يكون رحى الدائرة ومركز القضية، يدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويتدخل بين لحظة وأخرى للتخفيف من حدة الصراخ وعنف الكلمات المتبادلة بين المدعي العام والمحامي، أو لوقف تدهور الموقف أكثر مما يجب، أو لتحقيق نوع من التفاهم بينهما.

والمتهم يعتقد منذ اللحظة الأولى أنه يجابه خصماً لدوداً، متمثلاً بشخص المدعي العام، وأن محاميه إن قدر على التفوق عليه واكتساحه ـ بالحق والباطل ـ فقد ربح القضية ونجا من العقاب...

ألا يقتضي منطق العدل نفسه تقليداً إجرائياً آخر غير هذا التقليد ذي الصيغة الخاطئة، تحوّل الطرفين معاً، المدعي العام والمحامي، إلى رجلي بحث عن الحقيقة، جنباً إلى جنب مع الحاكم، ليس بالصراع وتبادل الكلمات، ولكن بالتفاهم والتعاون وبذل الجهد

المشترك، الجهد المخلص الذي يعتمد على الأساليب الموضوعية، للتوصل إلى الحقيقة المغيّبة عن الأنظار بقوة التزييف والتزوير؟!

وهكذا نجد كيف أن فكرة (المحاماة) بصيغتها أحادية الجانب هذه، هي بمثابة تقليد قدم إلينا من أوربا المنفعية، وأننا لسنا ملزمين البتة بالأخذ به، لأنه في بعض أشكاله يمارس (تزويراً) يخالف قيمنا وقناعاتنا وممارساتنا، بل قد يرتطم بها...

وكلنا يذكر ـ على سبيل المثال ـ ما كان يفعله الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سوح القضاء، والتقاليد الإنسانية العادلة التي صاغها على هدي دينه لكي تكون معالم بارزة على الطريق المضني الطويل للبحث عن الحقيقة، ولملاحقة الجريمة، والتزوير، ولإنصاف المظلومين من الظالمين...

وكلنا يعرف كيف كان رضي الله عنه وغيره من قضاة الإسلام على مدار التاريخ، مستعدين للتراجع عن قراراتهم النهائية في كل لحظة، إذا تبين لهم وجه جديد من القضية قد يعينهم على التوصل إلى الحق...

ومن ثم نعرف لماذا عدّ رسول الله ﷺ هذه الممارسات الثلاث الملتوية أكبر الكبائر؟ وراح يردِّدها حتى قال صحابته الكرام: ليته سكت!!

وكيف يتمّ السكوت إزاء هذا التزييف الذي يلفّ الحياة الإسلامية في معتقدها، وعلاقاتها الأسرية، ومصالحها الاجتماعية... كيف؟!

بين الحياة والموت

(عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحيِّ والميت»**)!!

يا له من تشبيه خطير...

إنه الفارق بين الحياة والموت... بكل ما تنطوي عليه الكلمتان من معنى...

فالذي يوغل بعيداً في فاعلية الإيمان بالله في الوجدان البشري؛ يجد نفسه قبالة الحياة بكل تمخضها وصيرورتها وقدرتها على البعث والتجدد والنماء... فإذا غاب الإيمان بالله، وانمحت لمساته المضيئة في النفس البشرية، قادها ذلك إلى التيبّس والضمور... والموت في نهاية الأمر...

ليس الموت السريري أو البيولوجي بطبيعة الحال... ولكنه الموت الروحي والوجداني، الذي أريد له أن يميّز الإنسان عن عوالم الحيوان والحشرات...

والذين جربّوا الأولى حدثونا عما خفقت به نفوسهم، والتمعت عقولهم من ومضات الحياة، وكتبوا في ذلك أروع القصائد

والمعطيات النثرية... وحدّثونا عن سِيَرهم الذاتية المترعة بالخبرات الروحية، التي تدفقت بالعسل المصفّى عليهم وعلى الآخرين ممن قرؤوهم أو تتلمذوا عليهم أو تعاملوا معهم...

وبمجرد نظرة سريعة إلى معطيات المتصوّفة الكبار، بعيداً عن التصوّف المنحرف ـ الضالّ، فإننا سنجد أنفسنا وسط خبرات عميقة، موغلة، مترعة بالعذوبة والحياة...

وكذلك الحال عبر تجوالنا في كتب (الرقائق)، التي تميزت بها مكتبتنا الإسلامية... فإنها تنطوي على شبكة خصبة من التعاليم التي تعرف كيف تفجّر الحياة في نفوس قرّائها، وكيف تضعهم في أعلى المصافّ من الخبرات البشرية...

الحياة التي يتحقق بها الإنسان بأبعادها الثلاثة: الطول والعرض والعمق، وليس ببعديها السطحيين، الطول والعرض، كما هو الحال بالنسبة لدهماء الناس...

والحق أننا جميعاً في هذه الحياة الدنيا ممثِّلون عابرون... ظلال عابرة... تتحرك مسرعة على شاشة الزمان... تملك طولاً وعرضاً، لكنها لا تملك عما تستحق من أجله البقاء...

الحياة الحقيقية المكثفة ذات العمق... (الحيوان) بالتعبير القرآني، هي هناك في الآخرة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أما هنا في (الدنيا)، ولنتنبه إلى دلالة الكلمة، كي لا يضيعنا

الأمل الكاذب والغرور... فما نحن سوى ممثلين عابرين... في مسرح رخيص... إن لم نتحصن بقوة الإيمان...

والرجل الرجل من يأخذ معه الزاد الذي يعينه على رحلة العبور الصعبة بين الحياة والموت... وبين الأرض والسماء... وبين الدنيا والآخرة...

من هذا كله يتضح الفارق الكبير بين الذي يذكر ربه والذي لا يذكره، ويصدق تشبيه رسول الله ﷺ إياهم بالأحياء والأموات...

في الحضارة الغربية المعاصرة، المتفوّقة تقنياً وخدمياً، تضمر الروح ويموت ـ الإنسان ويغيب ذكر الله في الوجدان البشري... فإذا حاولنا أن نلمّ جلّ مفردات الحياة الغربية، وأنشطتها، في أنساق محددة؛ فإننا سوف لا نجد بأكثر من ثلاثة أنساق، تندرج في أطرها تلك الأنشطة والمفردات... **الإنتاج**، أو التنمية والتكاثر يالأشياء (بما فيها الأسلحة والجيوش)... **والجنس**، أو الترفيه في أكثر حالاته حسية ومادية... **والسوبر ماركت**، أي النزعة الاستهلاكية التي يزيدها الإعلان، والتكاثر، والنزوع الحسّي، سعاراً وجموحاً... وتحت مظلة هذه الحياة تمضي كل القوى الفاعلة لتصعيد وتائر هذه الأطراف، أو الحدود الثلاثة التي تمسك اليوم بخناق الإنسان: الدولة والمؤسسة والمجتمع والفرد على السواء... كل يعمل من جهته لنفخ النار فيها... متفرّداً حيناً، متوافقاً أو منسقاً مع الأطراف الأخرى حيناً آخر...

والعالم يجري كالمجنون... يركض إلى حدّ اللهاث، أفراداً وجماعاتٍ وشعوباً وأمماً ـ ... الكل يريد أن يلحق بالركب الأمريكي الذي يقود حملة السوء هذه... الكل يريد أن يتكاثر بالأشياء، وأن يشبع نهمه الجنسي، ونزوعه الذي لا حدود له للاستهلاك، معتقداً على الطريقة الأبيقورية البائدة أن الحياة فرصة للتحقق باللذة، أو الطريقة الأسبارطية: (التحقق بالقوة)، بغضّ النظر عن ارتباط اللذة والقوة بمنظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية، أو عدم ارتباطها على الإطلاق...

ويتساءل المرء: ماذا لو مضى مثلث الشرّ هذا إلى النهايات القصية التي يراد له أن يمضي إليها، كيف ستصبح الحياة؟ وهل ستستحق فعلاً أن تُعاش، وقد فقدت عمقها الروحي، وبعدها الإنساني، وضوابطها الأخلاقية، وضيّعت مغزى الوجود البشري في العالم، وغدت مجرد لهاث وراء التكاثر بالأشياء، والتحقق بالإشباع الجنسي في أحط صيغة حسية وحيوانية... والنزوع إلى الاستهلاك الذي يكدّس ويكدّس حتى يجد الإنسان نفسه، كما يقول (أونسكو) في إحدى مسرحياته: محاصَراً بالأشياء، حيث يفقد حريته وقدرته على التواصل مع الآخرين...

ألا إنها اللعنة التي ستمسخ إنسانية الإنسان والحياة البشرية على السواء...

فهل هذه هي الحياة التي أريدت للبشرية؟!.

من أجل ذلك يتنبأ كبار القوم هناك: كتاباً وفلاسفة ومفكرين، بما يمكن أن يفعله هذا الدين المشحون بالبطانة الإيمانية في مستقبل البشرية... إذا أُريد لها أن تفيء إلى الطريق، وأن تتجاوز تسطّحها ومواتها غير المعلن، وتسترجع النبض الحقيقي لحياتها... بأن تعلن انتماءها لله!!

الشيطان يضحك...

بعنوان (تعديل جديد على قانون قديم) يقول (نزار قباني) في إحدى مقطوعاته النثرية التي تضمّنها ديوان (قاموس العاشقين):

«ان تلاقى رجل وامرأة في حجرة

«خرج الشيطان مهزوماً

لكي تدخل أزهار الربيع...»».

ليس قانوناً قديماً هذا الذي يتوهمه الرجل أو يوهم به الآخرين، لكي يتولى تعديله!! ولكنه حديث شريف «**إذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما**».

ولكن الشاعر يريد أن يمارس عملية التفاف الرجل من أجل تحقيق هدفه... وهذه ليست أول ولا آخر مرة تمارَس فيها محاولات التفاف مكشوفة كهذه!

والحديث الشريف يطرح دائماً حقائق قاطعة كالسكين... ليس هذا فحسب، ولكنه يضمّن معطياته كافة أوجه الحقيقة عندما تكون الأخيرة مركّبة، متعددة الأوجه والاحتمالات...

فها هنا، بصدد انفراد رجل بامرأة، لا يمكن الا أن يكون

الشيطان حاضراً! والشيطان لا يمارس مهمته بصيغة واحدة متكررة، أو شكل لا يقبل تغيراً أو تبديلاً... على العكس إنه يملك من الأساليب المتغيّرة، المتنوعة، المتجددة، ما يجعله أقدر على دخول قلوب بني آدم والعبث بها...

إن مسالكه إلى مكامن القلوب عديدة متشعبة، وهو يعرف جيداً كيف يتلوى، ويتخفى، ويغير المدخل في كل مرة، وينساب إلى الداخل من شعاب لم يكن قد اجتازها من قبل عندما يجد الموانع والمتاريس تقف في هذا الدرب أو ذاك، تصدّه عن المضيّ إلى هدفه...

إنه يطرق الأبواب أحياناً وبيده فعلاً باقة ورد، أو بطاقة تهنئة ملونة... ويطرقها حيناً آخر بمقطوعة موسيقية أو قصيدة شعر جميل... وقد يدخل مباشرة عندما يكون الطريق سهلاً... فلا أزهار، ولا أغانٍ، ولا قصائد ولا بطاقات!!

ولكنه في كل الأحوال يبتغي شيئاً واحداً... هدفاً لا يحيد عنه أبداً، ويكافح من أجل بلوغه دون كلل أو ملل...

ذلك هو الإغواء!!

تلك هي مهمته الأبدية... وكاذب دجال من يتصور أن الشيطان يمكن أن يتوخى لبني آدم سبل السعادة والمحبة والأمن والوفاق!

إنه لا شيطان الشعر والإلهام، ولا شيطان الشهوات والآثام، بمبتغِيَيْن للإنسان ما ينفع الإنسان...

فمنذ لحظة التحدّي الأولى التي حدّد فيها إبليس موقفه تجاه

المخلوق الجديد... المخلوق الكريم الذي بعثه الله لكي يعمر الحياة، ويزين العالم، ويمارس مهمته العمرانية التي أُنيطت به تكريماً وتقديراً، وحتى يوم الفصل... كانت مهمة الشيطان وستظل هي... هي... لا تتغيّر ولا تتبدّل، على تغيّر الخطط وتبدّل الأساليب: التضليل، ولا شيء غير التضليل...

ثم... ولنكن صرحاء ونتساءل عن طبيعة التجربة المتحققة على حيّز الواقع عند كل لقاء يتم بين رجل وامرأة... رجل قادر وامرأة جميلة بطبيعة الحال!! وليس وفق صيغ اللقاءات الثنائية الأخرى التي لا تتوفّر فيها شروط التأثير والتأثر، ولا تتحقق الخلوة على الأقل في حدودها الدنيا من حيز الزمن والمكان.

و(نزار) يريد على وجه التأكيد هذا النوع من اللقاء، كما هو واضح من كلماته تلك... فأية تجربة متحققة ها هنا غير الميل الفطري الأبدي لدى الطرفين أحدهما تجاه الآخر، والذي قد يقود، إذا غابت ضوابط الالتزام الديني أو الأخلاقي أو الإنساني، إلى نهايته الطبيعية وهي السقوط؟

من يصدّق أن الشيطان سيخرج مهزوماً؟ ومن يقول بأن أزهار الربيع لا تدخل لكي تنث عطرها وتضمخ الأجواء؟ إن هذا لا يمنع ذاك أو يحجبه بل على العكس، فإن الشيطان هو الذي سيتولى مهمة إدخال الأزهار، ونث العطور، لكي يجعل الأجواء أكثر إثارة وأقدر على تحقيق التأثر والتأثير...

إن الشيطان لا يعمل بدون ديكورات تغطي الجدران القبيحة

للممارسة الخاطئة... ومساحيق تضع الأصباغ على الوجوه التي تجعّدت بفعل الخطيئة والنيات السوداء!

إن الحب الأفلاطوني... غراميات مجنون ليلى... وكثيّر عزة... وروميو وجولييت... لهي استثناء من قاعدة أوسع بكثير وأكبر بكثير... والاستثناء كما هو معروف يؤكد القاعدة ولا ينفيها.

والدليل ما يؤكده (نزار) نفسه عبر جلّ دواوينه من أن اللقاءات الثنائية بين الرجل والمرأة ما كانت تكتفي بالوقوف عند شواطئ اللحظات الشعرية الحالمة، بل إن الرجولة والأنوثة تسوق حتماً، حيثما توفرت الشروط، إلى الخطوة التالية.

والخطوة التالية هي التي يريدها الشيطان، ويرسم لها، ويتحفز لتنفيذها...فأية هزيمة للشيطان هذه التي يتخيلها رجلٌ كان الشيطان يختبئ في جيبه عبر أربعين سنة أو تزيد...

إن المرء ليتخيّل الشيطان نفسه يستغرق في الضحك وهو يقرأ هذا المقطع... ولكنه ما يلبث أن يكفَّ عن الضحك، ويحسّ بارتياح عميق وهو يجد قدّامه حشوداً من الشعراء وغير الشعراء، يسعون للالتفاف على كلمات الرسل والأنبياء من أجل أن يُضلّوا بني آدم...

وهو الهدف ذاته الذي نذر شاعرنا له نفسه في معظم دواوينه... أما البقية الباقية منها، وبخاصة بعض روائعه السياسية، فتستحق التقدير والإعجاب... بل أكثر من التقدير والإعجاب... إذا أردنا أن نكون منصفين!

حرّروا الظهور من السياط...

الأمة التي ترتفع فيها أثمان كل شيء، ولا يرخص الّا الدم، أمة بحاجة إلى تغيير أساسي في مواقفها جميعاً...

ومن عجب أن يرتبط هذا (الرخص) لأغلى شيء في الحياة، بما يسمونه حركة التاريخ التقدمية... معنى هذا أن التقدم يستلزم حصد الرؤوس وقطع الرقاب، وفق الأسلوب الروبسييري المعروف. وليس هذا هو المهم، فما أكثر الخونة والرجعيين الواقفين في طريق الشعب المشروع صوب مطامحه وأمانيه، أولئك الذين يستحقون القتل والإبادة... المهم هو من بيده صلاحية تحديد المخلص من الخائن، والتقدمي من الرجعي، قبل إنزال المقصلة على الرؤوس؟ خاصة وأن حركة التاريخ التقدمية هذه توصل إلى مراكز المسؤولية في كثير من الأحيان أصحاب الأذرع القوية لا العقول المفكرة... والانتماءات الحزبية أو العصبية الضيقة، لا الشعبية أو الجماهيرية الواسعة، ونزعات الطغيان الفردي لا العدل الشامل؟

ومن ثم تجيء دوافع حماية النفس وسط تقابل غير عادل

بين قلّة تملك الحكم والمال والجاه والسلطان، وكثرة لا تملك شيئاً، الّا أنها لسعتها وامتدادها تمثل تحدياً خطيراً للقلة الحاكة المبرّرة بشعارات التحرّر والتقدمية.

وبمواجهة هذا التحدي تلجأ هذه القلة إلى الإرهاب... وليس كسفك الدم، واسترخاص الإنسان، قدرةً على تنفيذ هذا الهدف المريح، وتحقيق جشعه الذي يظل يتصاعد ويتصاعد مع الزمن، وبأسلوب طردي، كردّ فعل دائم لاتساع نطاق التحدّي، وازدياد توتّره بين الحاكم والمحكوم. وخلال هذا تشهد دائرة القلة الحاكمة نفسها تصدّعات وانشقاقات تدفعها إلى تناحر حاسم على السلطة، لا يصل فيه ويضمن البقاء والاستمرار الّا من يسفك دماً أكثر... ومرة أخرى، يكون الشعب هو الضحية، ويكون استرخاص الدم واحتقار الإنسان، أشبه بالدوّامة التي يجريها الأدهى والأقوى، والتي لا تطحن في أعماقها المنشقين فحسب، بل تمتد وتتسع لكي تلتهم كل من يُشَكّ بعدم موالاته للسلطان الجديد.

لكن أخطر ما في هذه الجريمة التي ألِفَتْها أمتنا خلال عقودها الأخيرة، فحوّلت أكثرياتها الساحقة إلى نعاج لا ترفع رأسها إلى فوق، ووسمتها بطبائع القطيع؛ أن عملية (الحصاد) الجماعي هذه لا تقتصر على أولئك الذين تثبت فعلاً، وبالأدلة القاطعة والبيّنات الملموسة، معارضتهم للنظام، ورفضهم القاطع للانتماء إليه أو التعاون معه، وهم كثرة ساحقة على أية حال؛ إنما تمتد إلى أعماق السرائر وطوايا النيّات، لكي تحكم بالظن

والتخمين، على مصائر أناس أكثر عدداً، وتسفك بالتهمة الخاطفة دماء أفراد وجماعات لا يدري إلّا الله سبحانه إن كانوا يستحقون القتل أم لا.

وعندما يرفض الرسول ﷺ ببطولة فذة، أن يجري مجزرة جماعية ثأرية شاملة، في أعقاب فتح مكة، لآلاف الرؤوس التي وقفت في طريق الدعوة طويلاً، وطاردت أتباعها وآذتهم وشرّدتهم وقاتلتهم وفرضت عليهم العزلة والجوع... ويسحب الرسولُ الرايةَ من القائد الأنصاريّ الذي أعلن عند مشارف البلد الحرام: «اليوم يوم الملحمة... اليوم تستحلّ الحرمة»، ويصدر بعد قليل عفوه العام في ظروف كانت كلّ المبررات تبيح له أن يسترخص دم الكفار ويحصد رؤوسهم حصداً باسم حركة الإسلام التقدمية، وحتمية انتصار التوحيد على الوثنية... عندما فعل الرسول ﷺ ذلك كلّه منح تاريخنا وتاريخ البشرية كله موقفاً نادراً إزاء التعامل مع الدم الإنساني، واحترامه، وحمايته، من الترخّص والتبذّل والاحتقار.

في ظلال قيادة كهذه، وعقيدة سمحة كعقيدة الإسلام، آثر المسلمون، بما فيهم المكّيون الطلقاء، أن ينطلقوا لقتال أعدائهم في الداخل والخارج، مجاهدين، فاتحين ومحرّرين... مسترخصين دماءهم، بإرادتهم واختيارهم الحرّ، الأمر الذي جعلهم يتفوقون على حركات الرّدة الخطيرة، ويتحركون لوضع العالم بين أيديهم.

وما أعمق الفارق وأشدَّه بين أمتنا وهي تنتمي لقيادة تعزّ دم

أبنائها وتحميه وتكرمه، فيختارون أن يسترخصوا دماءهم وهم يقاتلون العدوّ لتنفيذ أهداف تلك القيادة وبرامجها، وحماية فكرها ونشره في العالم، وبين أمتنا نفسها وهي تخضع لقيادة تحتقر دم أبنائها، وتهدره وتضيّعه، فلا يكون بمقدور هؤلاء، وقد أترع الخوف خلاياهم، وملأ كل مساحات وجودهم، الّا أن يجبنوا أمام العدو ويفرّوا بين يديه كالأغنام. فعلام يسفكون دماءهم في سبيل قيادة قد تولّت هي نفسها كِبْر هذه المهمة وملأت حياتهم إرهاباً ودماءً؟

إن مؤرخاً صليبياً ـ اشتراكياً (!!) مسموماً كبندلي جوزي يرى في موقف الرسول ﷺ ذاك، مهادنة لأرستقراطية قريش، ورجعية، وتآمراً على مصالح الجماهير!!

ويسأل أحد رؤساء محاكم الشعب التي تستخدم كأداة قانونية في الظاهر، لتنفيذ عمليات القتل الجماعي، عن المقياس الحقيقي للثوري المخلص فيجيبه الحاكم قائلاً: بقدر ما يسفك من دماء أعداء الثورة ومعارضيها، وبالسرعة التي يصدر بها أحكام الإعدام... ونقرأ في معطيات الفكر التقدمي المعاصر عن (العنف الثوري)، الذي لا يعدو أن يكون تبريراً للقتل، وشهادة مؤدلجة لصالح أعداء الإنسان.

ويبقى موقف رسولنا ﷺ بعد هذا كله، شرفاً للإنسان، وكرامة لوجوده، وانتصاراً لحريته... وتبقى أمتنا متأرجحة بين انتماء لقيادة صالحة تعزّ دمها، ويتحتّم أن تصل بها إلى مراكز السلطة من أجل أن تخرج إلى المعركة مسترخصة دمها في سبيل

أهداف أكبر... وبين خضوع لقيادات طالحة تحتقر دمها، فتخرج إلى القتال جبانة مذعورة بعد أن أذلّت نفوسَها عملياتُ القتل الجماعي وسفك الدماء.

هذا هو أحد مفاتيح قضيتنا في فلسطين... ولن تكون مليون بندقية بقادرة على تحرير شبر واحد من الأرض، على أيدي مقاتلين لا تزال آثار السياط مطبوعة على ظهورهم، ولا تزال دماء إخوتهم وأصحابهم الذين قتلوا في الداخل، تشدّهم شدّاً إلى الهزيمة والفرار... إنهم غير مستعدين أبداً أن يقاتلوا وجلّادوهم في الداخل يقطفون ثمار النصر والهزيمة على السواء.

الكلمة الطيبة صدقة...

ما أجمل تعاليمك يا رسول الله!.. إنها تريد أن تجعل الحياة الاجتماعية مترعة بالألفة والمحبة والانسجام... وأن تكون العلاقات بين الناس خالية من شوائب الأذى والكراهية والجفاء والبغضاء.

ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى هذه التعاليم الوضيئة... أن تسود المودّة بين المواطنين، وألّا يسمع بعضهم بعضاً إلّا الكلمات العذبة الودودة التي تزيد الروابط الاجتماعية قوة، والتي تمنح الحياة اليومية طعماً عذباً... في البيت... في المدرسة... في المسجد... في السوق... في الشارع... في المؤسسة... وفي كل مكان.

ولنتذكر أن نقطة الارتكاز في بناء أي مجتمع متحضّر على مدى التاريخ، إنما هي منظومة القيم الخلقية والسلوكية، وأن تنميتها والحفاظ عليها هي التي تجعل المجتمعات تمضي قدماً في سلّم الحضارة، ولهذا قال الشاعر أحمد شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والكلمة الطيبة هي واحدة من هذه القيم التي تلعب دوراً

كبيراً في بناء المجتمع، وتماسكه، وتمكينه بالتالي من المضيّ في طريق التقدم.

ومن منا لم يتلّق يوماً كلمة سامة، أو عبارة جارحة، تصدر عن أناس لم يتحصّنوا بالأخلاق، فتكون كالسكاكين التي تدمي وتمزق، الأواصر والعلاقات، وتستأصل المحبة من قلوب الناس؟

ومن منا ـ كذلك ـ لم يتلّق من هذا المواطن أو ذاك، كلمة طيبة تنزل على قلبه كالماء الزلال، وتفجّر فيه ينابيع المحبة للآخرين، والرغبة الجادة في التقرّب إليهمْ والتعاون معهم لتحقيق الأهداف العامة التي ينشدها الجميع؟

وللأسف الشديد فإن العائدين من ديار الغرب طالما تحدثوا عن (الكلمة الطيبة) المعلّقة على ألسنة القوم هناك، وأجدر بنا، نحن أحفاد الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) أن نتخلّق بذلك... ليس هذا فحسب، بل إن البسمة التي نقابل بها وجوه الآخرين، كادت أن تغيب من حياتنا هي الأخرى رغم أن رسولنا ﷺ أمرنا بها في حديثه الشريف: **«تبسّمك في وجه أخيك صدقة»**.

ولعلّنا نكون أكثر جدّية في التعامل مع هذه التعاليم من أجل حياة أكثر عذوبة وانسجاماً وجمالاً...

أن تقول لأخيك الذي أخطأت معه خطأً بسيطاً: (آسف) فكأنك تزيل من نفسه ـ لحظتها ـ ما قد يسبب له الأذى الذي سرعان ما ينقلب حقداً وكراهية وبغضاء قد تفترس جملته

العصبية، وتكون أنت ـ من جهتك ـ قد خسرته، وربما إلى الأبد... هذا كلّه يمكن ألّا يحدث بإعمال الكلمة الطيبة في علاقاتنا الاجتماعية.

أن تبتسم في وجه أخيك ـ إذا أخطأ معك ـ فتزيل من نفسه دوافع الخطأ، وتدفعه دفعاً في الاتجاه المقابل تماماً... إلى حالة من المحبة والأريحية والاعتذار، فتعود العلاقة المتأزمة بين الطرفين إلى وضعها الطبيعي تماماً من الألفة والتجاوب والانسجام.

ثمة أبعاد نفسية واجتماعية تترتب دائماً على مواقفنا من بعضنا البعض، ولطالما تضخّمت «الحالة» الخاطئة تضخماً سرطانياً يقود إلى ما لا تحمد عقباه... ولطالما تحوّلت إلى «جريمة» قد تقود حتى إلى القتل... ناهيك عما تسببه للطرفين من معاناة نفسية مترعة بالحقد والرغبة المكبوتة في الانتقام.

هذا كله ما كان له أن يحدث لو عرفنا كيف نشغّل «الكلمة الطيبة» و«البسمة الحانية» في حياتنا اليومية وعلاقاتنا الاجتماعية... ولنتصوّر حياة تخلو من هاتين، وتستبدل بهما الكلمة الجارحة والنظرة الحاقدة، ماذا يمكن أن تقطع من أواصر، وتقود من سوء؟!.

والرسول المعلّم (عليه أفضل الصلاة والسلام)، من أجل أن يبعدنا عن هذا المصير الكالح، ويحبّبنا بنقيضه الوضيء، يعلن عن الأجر الكبير لكلٍ من يطلق لسانه بالكلمة الطيبة، وملامحَه

بالبشاشة والمحبة، ويعتبر ذلك «صدقة» تدخل في رصيد المؤمن رقماً إيجابياً سيجده يوم الحساب...

وصدق رسول الله ﷺ الذي جعل الكلمة الطيبة والبسمة الوضيئة تساوي ما ينفقه المسلم على الفقراء والمحتاجين من كدحه الخاص... فإن هذه جميعاً ـ والحق يقال ـ تعمل عملها في الحياة الاجتماعية والنفسية صمامات أمان تحميها من القطيعة والكراهية والحقد والبغضاء...

٣٤

رفض للتشدّد والغلّو...

في سيل متدفق من الأحاديث يعلن رسول الله ﷺ رفضه القاطع للغلّو والتشدّد، ويدعو للتيسير... إنه يعرف جيداً أنه بعث بالحنيفية السمحاء، فلتكن الحياة الإسلامية إذن، سمحة ميسّرة بما يجعلها كفاء هذه اللافتة العريضة التي تعلن عنها.

ومن أكثر من زاوية، وعبر جملة من الممارسات والخبرات التي يتخذ منها رسول الله ﷺ وسائل للإيضاح، يجد المسلم نفسه قبالة تأكيد واضح لا يقبل لجاجة ولا جدلاً، في أن هذا الدين ما جاء لكي يضيّق الخناق على الناس، ويعنّتهم، ويكلّفهم ـ ما لا يطيقون، وإنما ليطلب منهم، ويضع على عواتقهم ما يناسب قدراتهم البشرية التي منحهم الله إياها، لكي ييسّر عليهم، ويطلب منهم ما يطيقون، ويفتح أمامهم السبل لحياة طيبة سهلة ميسّرة، رغم ما فيها من إلزامات وتكاليف... بل إن هذه بالذات هي التي تمضي بعجلة الحياة وفق أكبر قدر من التوازن، والتوحّد، والائتمان، والاطمئنان، والرضا، وبدونها ستنقلب على الناس وبالاً، بما تنطوي عليه من جموح، وقلق، ولهاث، وهمّ وغمّ، ونوازل وأحزان... إنه دين التحرير لا دين التقييد

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعـــراف: ١٥٧]. وليس من جرّب كمن لم يجرّب... ولقد قالها القرآن الكريم متحدثاً عن كلمات الله بأنها ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وكل ما سيأمر به كتاب الله، كل ما سيطلبه رسول الله ﷺ من أتباعه، إنما هو إعانة على التحقّق بهذا (الشفاء)، وبكل ما تنطوي عليه الكلمة من معانٍ ودلالات.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال ما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر. فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه ثم يقول: **«إن اتقاكم وأعلمكم بالله أنا!!»**).

إنه ﷺ يعرف جيداً ما يريده الله سبحانه من عباده، شفقة عليهم ورحمة بهم، ويعرف ـ كذلك ـ أن التقوى ليست بالضرورة إهلاك للنفس، بل بالعكس، التعامل معها وفق ما جُبلت عليه، وأخذها بالرفق والسماحة لكي تقدّم أقصى ما تطيق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ الّا غلبه»**... الدين يسر وبهاتين الكلمتين يختصر الرسول المعلم الأمر كلّه...

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي دخل عليها وعندها امرأة، فقال: من هذه؟ قالت: فلانة تذكر من صلاتها. قال: **«مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا»**. وكان أحبَّ الدين إليه ما دام عليه صاحبه...

أإلى هذا الحدّ يا رسول الله؟! أن تحذّرنا من ملل الله جلّ في علاه إذا مللنا، وتطلب منا ـ بالتالي ـ أن نتعامل مع الأمور بقدرها من القصد والاعتدال حتى لا نملّ فيملّ الله... يا سبحان الله... ما هذه الرؤية المترعة بالشفافية، والتي ترسم هذه الصلة الحميمة بين الله والإنسان؟!

ثم إن الله سبحانه يريد من المسلم إدامة فاعليته الدينية في حلقاتها كافة، ولن يكون ذلك إلّا بالتعامل معها بالممكن وليس بالمستحيل.

صحيح أن الإسلام فتح الطريق لكل من يريد أن يبذل جهداً أكبر، وأن يمضي خطوة أبعد في طريق الصعود، ولكنه إدراكاً منه للتكوين البشري، رسم حدوداً دنيا هي بمثابة القاسم المشترك الأعظم للناس كافة، وقبل بها، وبذلك حقق هدفين: استئصال الإحساس بالتألّم والتقصير من النفس البشرية من جهة، وفتح الطريق ـ في الوقت نفسه ـ تطوّعاً واختياراً، وليس إرغاماً وإلزاماً، لمن يريد أن يمضي قدماً إلى فوق!!

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (**كان النبي يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا**)... إنه هنا يمنح الدعاة والعاملين تعليماً في غاية الأهمية: ألّا يأخذوا سامعيهم وطلبتهم بالجهد المتواصل الذي لا يسمح بلحظة واحدة لالتقاط الأنفاس، أو الترويح عن النفس، وألّا يضعوهم في دائرة السآمة التي تُفقد الإنسان القدرة على التلقّي والمتابعة والتركيز.

وهو تعليم يمكن، إذا أحسّنا التعامل معه، بالنسبة المطلوبة، أن يخدمنا في أنشطتنا الإسلامية، فها هي ذي بعض الفضائيات الإسلامية تلحّ في الجدّ، ولا تترك في برامجها محطات للراحة والترفيه والاستجمام، فينصرف عنها المشاهدون، أو أنهم يتابعونها ولكن ذهنهم شارد في مكان بعيد.

ويعود رسول الله ﷺ (فيما رواه أنس) لكي يقول: «**يسّروا ـ ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا**» وهو خطاب لا يدرك أبعاده الّا التربويون الذي يعرفون جيداً، أنهم سيخسرون تلامذتهم، أو في الأقل سيضيّعون جهدهم عبثاً، إن ساقوهم إلى التنفير وكلّفوهم ما لا يطيقون.

والرسول ﷺ لا يريد أن يحصر التيسير والسماحة في دائرة العبادة، كما قد يخيّل للبعض، إنما يمدّها إلى آفاق الحياة كافة، ويُجريها في عروقها وشرايينها، لكي تربو وتنتفض وتتجاوز التيبّس والكراهية والجفاء... إنه ـ فيما رواه جابر بن عبد الله ـ ينتقل بها إلى دائرة المعاملات فيقول «**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**».

وكلّنا يذكر، والمرارة تملأ فمه، ما يحدث في (السوق) بين الكثيرين من البائعين والمشترين: الغش والخداع، والتطفيف، والأيمان الغموسة، والسباق المحموم بين ثعالب يريد كل منها أن يتفوّق على الآخر... ويذكر في الوقت نفسه الحالات النادرة،

المترعة بالسماحة، في عمليات البيع والشراء، ويذكر ما تنطوي عليه من عذوبة وإغراء!

وما يلبث الحسم أن يجيء من لدن الرسول المعلّم، فيما رواه عبد الله بن عمر إذ قال: ـ (كنا إذا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة، يقول لنا: **«فيما استطعت»**)!

منذ البدء... لحظة التأسيس الأولى للانتماء... وفي ظلال قدسية المبايعة وجلالها، ـ كان رسول الله ﷺ يؤكد على الاستطاعة، ويأمر بها، كي لا يذهب المبايعون بعيداً ويشتطّ بهم النوى! وهو ﷺ يذكّر أتباعه بأن قاعدة هذا الدين هي (الحلال)، والحرام هو الاستثناء، وأن ثمة مساحة كبيرة جداً مُنحت لهم كي يحيوا حياة طيبة، وأن عليهم ـ بالتالي ـ ألّا يضيّقوا واسعاً، أو يحرّموا ما أحلّ الله، بالتشديد على أنفسهم، فيقعوا في الخطيئة نفسها التي مارسها قبلهم اليهود والنصارى...

والحديث الذي يرويه ابن عمر واضح الدلالة في هذا المجال... قال قال رسول الله ﷺ: ـ **«لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصِبْ دماً حراماً»**... وبهذا يقطع ﷺ الوسواس اللعين الذي يتسلّط بصورة قهرية على بعض (المتشدّدين)، ويصدّهم عن العديد من المباحاة خشية أن تكون حراماً، وهي حالة تجعل الحياة الدنيا شيئاً لا يُطاق من التضييق والجفاء والتيبّس، وغياب اللمسات الإنسانية، وربما الرحمة والحنان... فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (جاء أعرابي النبي فقال: أتقبّلون الصبيان،

فما نقّبلهم!! فقال النبي: **«أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!.»**.

ومرة أخرى يعود الرسول المعلّم ﷺ لكي يحسم المسألة كلها بكلمات قلائل تؤكد على أن التيسير، وتجاوز الغلوّ والتشدّد، مطلوب في ممارسات المسلم كافة، ماضٍ لكي يغطي نهر الحياة على تدفقه وامتداده... عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: **«إن الله يحب الرفق في الأمر كله»**!

الله سبحانه هو الذي يحب الرفق في ممارساتنا كافة... أفنخالف عن أمر الله ونجهز على الرفق بسكين الغلوّ والتشدّد؟!

المجتمع السعيد...

هكذا يريده رسول الله ﷺ مجتمعاً آمناً متضامناً متوادّاً متحابّاً وسعيداً... إنه يخاطبنا بحسم ووضوح فيما رواه أنس: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**... لا يؤمن... هكذا، وإلا فإن إيمانه مدسوس ومشكوك فيه. ولنتخيل لو أن جميع أفراد المجتمع أحبوا لإخوانهم ما يحبونه لأنفسهم كيف سيكون الحال؟!.

إننا لا نحب لأنفسنا الّا الخير، بكل ما ينطوي عليه من قيم ومفردات، وفي سياقات الحياة كافة، فلو أننا أردنا هذا للآخرين، لو أننا لم نقف عند حافات النيّات، ومضينا قدماً لتفعيل النية وتحويلها إلى أمر واقع في حياة الناس... فإن لنا أن نتصوّر كيف سيكون الحال في مجتمع تمّحي فيه الأثرة ويسود الإيثار...

إن مساحاتٍ وبقعاً واسعة من التعاسة والشقاء في نسيج أي مجتمع، منبعها ـ إذا أردنا الحق ـ أن كلّاً منا «يريدها» لنفسه لا للآخرين... الأنا تصبح هي الحاكم والموجّه ـ لسلوك الناس وصلات بعضهم ببعض، فلو أننا قدرنا على كسر حدة الأنا هذه،

وانفتحنا على الآخرين، وأحببنا أن يحصلوا على ما نحصل عليه، ويصلوا إلى ما نصل إليه... فإن «الايثار» سيكون هو الحاكم والموجّه لمفردات السلوك، وسيقود هذا إلى حياة اجتماعية مترعة بالتوافق والتكافل والتوحد والانسجام...

ويمضي الرسول المعلّم والأب الكبير مؤكداً المعنى نفسه في حديث آخر، جاعلاً (البيعة) التي هي عقد الانتماء لهذا الدين وأساسه، منطوية بالضرورة على (النصح) لكل مسلم... أي على أن يضع أحدنا، وقد اختار أن يصبح مسلماً، كل خبراته وتجاربه الإيجابية بين يدي الآخرين، ليس فقط لكي يدلّهم على الطريق، وإنما من أجل إعانتهم على التحقق بأكبر قدر من الخبرات الطيبة التي نملكها... وبالتأكيد فإن تبادلاً كهذا تحت مظلة (التناصح) سيقود إلى تكوين مجتمع ليس كالمجتمعات... مجتمع تسوده الألفة والمحبة والعطاء المتبادل... عن جرير بن عبد الله البجلي قال: (إني أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أبايعك على الإسلام فشرط عليَّ النصحَ لكل مسلم، فبايعته على هذا).

إنه ﷺ يسعى باشتراطٍ كهذا إلى تحقيق الأمن الاجتماعي بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى، فحين يصبح النصح أمراً ملزماً... جزءاً من بيعة، فإنه سيحقق هدفين في وقت واحد: ألّا يفترس أحدنا حقوق الآخرين... وأن يعينهم في الوقت نفسه على التحقق بها، فيسدّ بذلك كل بوابات السوء التي يمكن أن تنفتح على المجتمع بالشرّ والأذى وتضييق الخناق على سلمه وتوافقه...

وفي المقابل، فإنه ﷺ يحذّر من الظلم، لأنه أحطّ دركات الأثرة والأنانية... أن نبني مكاسبنا على حساب الآخرين، وأن نُسعد أنفسنا بظلم الآخرين...

إن ظلم الآخر هو النقيض الكامل (إذا صح التعبير) لمحبة الآخر... إنه الأخذ بالحق والباطل بينما المحبة هي البذل والعطاء... ولنا أن نتوقع كيف سيقود الظلم إلى تفكيك عرى المجتمع وتمزيق نسيجه وسرقة أمنه وانسجامه...

وللتنفير من الظلم، وتحقيره، ونفيه من العلاقات الاجتماعية واستئصال شأفته يلجأ ﷺ إلى التخييل الحسّي أو التجسيد، ليس هذا فحسب، بل إنه يستحضر معنا ما سيؤول إليه يوم الحساب... عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**».

وعن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقه من سبع أرضين**»... إنها الممارسة المرذولة التي تنقلب على أصحابها ظلماتٍ يوم القيامة وتطوِّقهم من جهاتهم السبع!

وهو ﷺ يلجأ مرة أخرى إلى التخييل الحسّي أو التجسيد في سعيه لتقديم الصورة الوضيئة للمجتمع المسلم المتحاب المتواد المتضامن المتكافل الآمن السعيد... عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً**» ثم شبك بين أصابعه. وهذا هو أقصى ما يطمح إليه، ويتمناه، مجتمع من المجتمعات.

موقع وسط بين الغلوّ والتقصير...

فئتان من المسلمين كان الرسول المعلّم ﷺ يبذل جهده الموصول معهما لإعادتهما إلى الجادة، ووضعهما في الاتجاه الصحيح... في موقع وسط بين الغلو والتقصير... بين الإفراط والتفريط... بين التشدّد والتسيّب، لكي تكونا أقرب إلى روح هذا الدين، وحنيفيته، وسماحته، وصرامته وانضباطهِ في الوقت نفسه.

الموقع الوسط الذي لا يميل فيه المسلم ولا يجور على نفسه وعلى الآخرين، والذي لا يحمل نفسه أكثر مما تطيق، ولا يطلق لها العنان ـ من جهة أخرى ـ فتنفلت وتتسيّب...

إنه ﷺ كان يخشى اندفاع بعض أصحابه باتجاه القطب البعيد طلباً للأجر، أو تحسّباً من الوقوع في الخطأ والتقصير. وكان يحذّر ـ في الوقت نفسه ـ بعضهم الآخر، ممن يشدّهم الإلف والاعتياد بعمقه الزمني، وثقله الاجتماعي والنفسي، إلى التفلت والتساهل الذي يتجاوز حدوده المعقولة... ولذا نجده ﷺ يصدر سلسلة من التعاليم والتوجيهات، ويمارس جملة من

المواقف، للعودة بأولئك وهؤلاء إلى نقطة التوازن المطلوب، وإغرائهم بها، وإلزامهم بمطالبها.

إنه ـ مثلاً ـ يقول: «**لا تزال أمتي على خير ما عجّلوا الفطور وأخروا السحور**»، من أجل دفع أتباعه إلى التزام اليسر في التعامل مع ظاهرة الصيام، وعدم الاندفاع باتجاه تأخير الإفطار وتعجيل السحور لمدّ مساحة الامتناع والحرمان إلى ما وراء حدودها المعقولة طلباً للأجر!! ولطالما أكد على أصحابه أنه ﷺ يصوم ويفطر، ويأتي زوجاته، ولا يكلّف نفسه ما لا تطيق، من أجل أن يكفّهم عن مواصلة الصيام، وما يتطلبه من جهد وحرمان قد لا يكونان مبرّرين، ويذكّرهم بالآية الكريمة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومثل ذلك شبكة من الأحاديث والتوجيهات والمواقف التي كان يستهدف منها ردّ أصحابه إلى الجادّة، ومنعهم من الغلوّ الذي يثقل على النفس والجسد، ولا يتوافق مع روح هذا الدين، وتيسيره، وحنيفيته السمحاء...

ولطالما نادى أصحابه، وكل الذين سيجيئون من بعدهم جيلاً بعد جيل: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**»!!

ولكنه ـ في مقابل هذا ـ لم يكن يتساهل مع فئة أخرى من المسلمين كانت تميل إلى التساهل بأكثر مما يجب، على حساب الثوابت العقدية والتشريعية والسلوكية... واعتمد، جنباً إلى جنب

مع القرآن الكريم، أقصى درجات التحذير من الذهاب بعيداً في هذا الاتجاه...

والشواهد كثيرة لا يحتملها مقال كهذا، وهي معروفة للجميع... ولذا سأقف عند واحدة منها فحسب: نظام الصلاة في المسجد... الوقوف صفوفاً منتظمة خلف الإمام دونما أي ميل أو انحراف... وممارسة الركوع والسجود وراءه بتوقيت محسوب لا يسمح لأيٍّ مصلٍّ على الإطلاق أن يربكه أو يخرج عليه.

إن كثيراً من الذين انتموا إلى هذا الدين، وبخاصة في أخريات عصر الرسالة، جاؤوا يحملون معهم تقاليد البداوة وعاداتها التي ترفض الانضباط والنظام وتعشق الفوضى والتسيّب، وكان لا بّد من بذل جهد مضاعف معها، وبخاصة في مسألة تعبدية كالصلاة التي هي عمود الدين، من أجل تعليمهم، بل إرغامهم على «النظام»... واعتمد أقصى درجات التنديد بمن يشذ عن ذلك، «**إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج**»، كان رسول الله ﷺ يقول لهم... واستووا صفوفاً «**ولا تذروا فرجات للشيطان**»... بل إنه ﷺ مضى إلى أبعد من ذلك، فندّد بالذين يسبقون الإمام في ركوعه وسجوده، وحذّرهم من أن يُمسخوا حميراً يوم الحساب!!

ونحن نستطيع أن ندرك الحكمة من موقف متشدّد كهذا، بمجرد أن نتذكر أننا أمام معادلة صعبة... حالة من التسيّب واللاانضباط، وكراهية النظام، عمرها مئات السنين، كان على الرسول ﷺ أن يردّها إلى الجادّة في سنوات معدودات... شأنها

شان عادة شرب الخمر وتأصّلها في الحياة العربية الجاهلية لمئات السنين.

ولقد نجح هذا الدين، وآياته البيّنات، ومعلّمه الكبير، في الاختبارين معاً... وتلك هي إحدى معجزات الإسلام... بحيث إن الكثير من الغربيين «المتحضرين» الذين انتموا إلى هذا الدين، كانت رؤيتهم للصلاة الإسلامية المدهشة في نظامها، عاملاً من أهم العوامل التي ساقتهم لهذا الانتماء...

وثنية بالطول والعرض...

للعصر الحديث وثنيته هو الآخر... وثنية (الصورة) التي تعلّق على رؤوس الناس في دوائرهم ومؤسساتهم، وتباع وتشترى في الأسواق، وتعلّق على الصدور، ويطاف بها في المناسبات وفي غير المناسبات... وتؤطّر، وتمسح جيداً، ويقف العبيد الجدد إزاءها معجبين... خاشعين!!

للعصر الحديث وثنيته هو الآخر... ولكنها وثنية بالطول والعرض فقط، بينما كانت أوثان الجاهليين في العالم القديم تملك العمق أيضاً... ربما لأن فن التصوير لم يكن قد استكمل أسبابه بعد... والأمر سواء... صورة تعلّق على الرؤوس الكبيرة في الأمة وتوقرها جماهير الناس... أو وثن يطوف به رجال الملأ، وتتمسّح عند أقدامه عامة الناس!!

ولحظة دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً، وانتهى إلى الكعبة، لم يفرّق وهو ينزل معوله في أوثانها بين الحجارة المنحوتة، وبين الصور البدائية للأنبياء السابقين، فأمر بإزالتها جميعاً، وقال عن صورة مرسومة على جدار الكعبة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما

يستقسمان بالأزلام: «**كذبوا، ما كان إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بها قط**».

إن الإسلام لم يحرّم النحت أو التصوير لذات النحت أو التصوير، ولكنه حرّم كل ما من شانه أن يقود الناس إلى نوع من التعبّد الوثني لأبناء جنسهم، في أي زمن أو مكان، ما دام الله سبحانه قد خلق بني آدم كلهم سواء... ومن ثم فقد لبس المسلمون ثياباً مرسومة، واستخدموا ستائر منقوشة، واتكؤوا على وسائل مصوّرة وملوّنة، وحفروا ونحتوا المحاريب والمنابر والمآذن والقباب، ولم يقل أحد أن هذا حرام!

لكن هذه!

هذه العلاقة المزيفة، والمحزنة في الوقت نفسه، بين الإنسان الذي جاء الدين لكي يحرّره من الأوهام، وبين الصور والتماثيل التي تذلّ عنقه، وتحني رأسه، وهو المخلوق الذي أُريد له أن يكون (سيّداً) على العالمين! وها نحن الآن في العصر الحديث نعود ثانية إلى زمن الوثنية.

إن أشد الدول تقدماً تكتسح زعماءها اليوم هذه الروح... هذه الرغبة العاتية في أن يفرضوا التعبّد والتقديس على أتباعهم وشعوبهم، وفي أن يخيّلوا لهم، بشكل أو بآخر، انهم مصنوعون من طينة أخرى غير طينتهم، متربعون في مواقع أعلى بكثير مما يقدرون على الصعود إليه...

إن أيَّ زعيم جديد يجد نفسه مدفوعاً إلى هذا الموقف، فلا

يقرّ له قرار حتى يرى (صورته) معلّقة في المؤسسات والدوائر والأزقة والشوارع والساحات والميادين، ملصقة على جدران المساجد والكنائس والدور... مرفوعة على الجباه والصدور، مطاف بها في التظاهرات والمسيرات.

إن هذا يذكّرني بما قاله يوماً (أكناز سيلوني) الشيوعي الإيطالي، الذي ارتّد عن الشيوعية لأكثر من سبب، من أنه رأى جموع الناس في موسكو ـ في ثلاثينيات القرن الماضي ـ تحج إلى قبر (لينين) المصنوع من الخشب المتقن، وانهم يقفون طوابير كي يجيء الدور على كل واحد منهم في أداء العمرة إلى الصنم، وأنه حدّث أحد رفاقه هناك بأنه يتمنى لو يتاح له إحراق هذا القبر واستئصاله حماية لمبادئ (لينين) نفسه!!

ومن ثم فإن وثنيتنا الحديثة ليست وثنية الطول والعرض فحسب... ليست وثنية الصورة المسطحة فحسب... ولكنها ستؤول ثانية إلى ما كانت عليه شقيقتها البائدة: وثنية الأصنام التي يُطاف حواليها، وتقف جموع الناس أمامها بخشوع، منكّسة الرؤوس والأبصار...

ولا حول ولا قوة إلّا بالله...

وقفة عند بوابة رمضان...

ها هي ذي أمّة المليار ونصف المليار مسلم تقف عند بوابة رمضان معاهدة الله سبحانه على الامتناع عن الطعام والشراب... وحفظ الجوارح من كل شائبة، وملاحقة خطرات القلوب... معاهدة إياه على مجافاة النوم والاسترخاء... وعلى سهر الليالي...

ما الذي يعنيه هذا سوى أن هذا الشهر تجديد للعقد المقدس بين الله والإنسان... وشحن لإرادته... وإشعال الفتيل في طاقاته الروحية للمضيّ إلى فوق...

من أجل ذلك يقول جلّ في علاه في حديث قدسي **«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا الذي أجزي به...»**...

يا الله!.. ما أروعها من عبارة تهزّ الضمائر والقلوب... وتغري بالانسلاخ الكامل عن إغراءات الحياة الدنيا والتجرّد لله... **«فإنه لي وأنا الذي أجزي به»**!!

فيا أيها المسلمون في كل مكان، اكسروا التقاليد الرتيبة التي جعلت من رمضان مجرد تغيير اعتيادي في روتين الأيام... وتذكّروا أنه تجديد للعقد المقدس، وأن عليكم أن تستجيشوا أعمق

نقطة في خلايا القلب والعقل والروح والوجدان، من أجل أن تكونوا بحجم رمضان كما يريده الله ورسوله... لا كما اعتاده المقلّدون...

إنه يجيء في كل عام مرة واحدة يحمل لكم البشرى... بشرى التطهّر من كل ما مارستموه من أخطاء، والانطلاق من جديد، متحرّرين، متخفّفين، للاقتراب أكثر فأكثر من رضا الله!!

والذكي الذكي من يعرف قيمة الفرص المتاحة أمامه لكي يهتبلها، في إعادة بناء سلوكه، وسدّ الثغرات التي اخترقه بها الشيطان، والانطلاق ثانية عبر الصراط الواصل إلى الله...

إن هذا الدين سخيّ مع أتباعه... والله سبحانه هو الأكثر سخاء... عندما فتح الطريق على مصراعيه للخروج من دائرة (الإثم) إلى فضاء التطهرّ والنقاء... ومنحهم الفرص التي لا تعدّ ولا تحصى للعودة إليه... جلّ في علاه...

ورمضان، هو واحد من هذه الفرص للتحقق بالمطلوب... فليست الخطيئة أمراً كلياً يطوّق الإنسان من جهاته الأربع فلا يستطيع الخلاص منها بإرادته، ولا بّد من معاونة الآخرين... إنما هي في المنظور الإسلامي جزيئات بسيطة تنتشر كالطفح على حافات السلوك، وتنتظر الجهد البشري لإزالتها... وهو جهد ليس بالصعب ولا بالمستحيل إذا صحّ العزم وخلصت النيّات...

ويجيء رمضان لكي يمنح المنتمين إلى هذا الدين الفرصة لإزالة الطفح واستعادة السّوية الصحية للسلوك...

فإنك بمجرد أن تشحذ إرادتك فتكفّ عن الطعام والشراب،

وتحفظ جوارحك من كل شائبة، وتلاحق خطرات القلب... تكون قد بدأت الطريق... ومع الكفّ والحفظ والملاحقة، جهد موصول من التعبّد والتحنّث وسهر الليالي بحثاً عن المزيد من الكسب للرصيد الإيجابي المفتوح، وتضييق الخناق على بؤر الشر والفساد والمروق...

«فإنه لي وأنا الذي أجزي به» لأنه جلّ في علاه يعلم ما يكلّفه الصوم من مشقة، وما يتطلبه من صبر، ليس ـ فقط ـ عن الطعام والشراب، وإنما عمّا اعتاد عليه الناس، وأصبح جزءاً أساسياً من حياتهم اليومية عبر أحاديثهم ومعاملاتهم من رياء وغيبة وتنابز... وغيرها من عشرات الممارسات الخاطئة التي يجيء التوقف عنها بقوة الإرادة الإيمانية بمثابة إعلان للحرب على «الخطيئة» مهما ضؤلت ودقّت... وهذا يتطلب جهداً فائقاً لن يكون جزاؤه إلا ذلك الذي يجيء من عند الله سبحانه، وما أعظمه من جزاء!..

ضرورات الفقه الحضاري...

الفقه الحضاري يُعنى باستقصاء وتحليل قوانين الحركة التاريخية، أو سنن الله العاملة في التاريخ، تلك التي ترفع الأمم والجماعات والدول وتنشئ الحضارات، أو تخفضها، وتصيبها بالتفكك، وتقودها إلى الأفول والانهيار.

ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى فقه كهذا، لإضاءة مسائل وإشكاليات عقدية وتاريخية ومعاصرة، وتقديم أجوبة أكثر دقة بخصوصها.

والقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، فضلاً عن تراثنا الفكري، ومعطيات فلاسفة ومفكري التاريخ ودارسي الحضارات المحدثين، يتقدمون جميعاً بالإجابات المطلوبة، إذا عرفنا كيف نحسن التقاطها وإدراكها.

هناك ـ على سبيل المثال ـ ضرورة إعادة النظر في الدراسات التقليدية المعنية بالسيرة النبوية والتي جعلتها، أو اختزلتها بعبارة أدق، في عرض عسكري لغزوات رسول الله ﷺ،

والتحوّل إلى التعامل معها كمشروع حضاري تؤكده معطيات السيرة نفسها...

هناك ـ أيضاً ـ ضرورة إعادة النظر في مناهج دراسة وتدريس مادة (حضارة الإسلام) في المعاهد والجامعات، وتجاوز المنهج التفكيكي المعتمد منذ أكثر من قرن من الزمن، إلى منهج شمولي يعرف كيف يتابع «شخصانية» هذه الحضارة، وحلقات نشوئها ونموّها وازدهارها، وعوامل أفولها وانهيارها في نهاية الأمر.

هناك التحديات الأكثر حداثة كنظرية (نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما، ونظرية (صراع الحضارات) لصموئيل هنتنكتن، ومعطيات النظام العالمي الجديد، أحادي القطبية.

وهناك تحديات المشاركة الإسلامية في مستقبل العالم، وإعادة صياغة المصير البشري، ودور الحضارة الإسلامية ـ في حالة انبعاثها ـ في هذه المشاركة، ومساحتها الممكنة.

وهناك ما يطلق عليه اليوم (المشروع الحضاري الإسلامي البديل) الذي يتحتم على الأمة الإسلامية أن تنسج حيثياته من الأساسيات العقدية والتشريعية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسوابق الأجداد والآباء، وأن تؤكد حضورها قبالة انهيار جلّ المذاهب والنظم الشمولية والوضعية التي استعبدت الإنسان في العالم، منذ انحراف الأديان الكبرى وعزلها عن أداء مهمتها...

وثمّة قبل هذا كله ضرورة القيام بمسح شامل لمنظومة الآيات والمقاطع القرآنية المعنية بقوانين الحركة التاريخية أو سنن

الله العاملة في التاريخ، وتفسيرها، من أجل إغناء وإضاءة الدراسات الحضارية الخاصة بالموضوع.

هذه المسائل جميعاً تتطلب فقهاً حضارياً، أي وعياً بقوانين الحركة التاريخية، وبالتالي فإن على مثقفينا عامة، وطلبة الجامعات في عالم الإسلام كله بشكل خاص، والمعنيين بالتخصصات التاريخية والحضارية على وجه التحديد، أن يولوا اهتماماً أكبر لهذه المطالب والتحديات، وألّا يكتفوا بمعارف تاريخية وحضارية مفككة، يتلقونها أو يتعاملون معها على عجل، ويتخرجون، مكتفين بالشهادات وحدها، دون فهم عميق لما يتحتم أن يكونوا على وعي به في سياق تخصّصهم المهم هذا.

إن الفقه الحضاري ـ والحالة هذه ـ يغدو ضرورة من الضرورات القصوى لحملة الهمّ الإسلامي في العالم المعاصر، من أجل أن يتحركوا وهم على وعي تام ورؤية نافذة لخرائط العمل، في زمن اختلط فيه الحابل بالنابل، وتداخلت التحديات، وتقوّى فيه القوي على الضعيف، وسدّت المسالك أمام المبادئ والنظم الوضعية، وازداد ضلال الأديان المحرّفة... حتى غدا العالم بأمسّ الحاجة إلى مشروع كبير ينقذه من الورطة التي يتخبط فيها ويقوده إلى الصراط...

ومرة أخرى، وكما يقول روجيه غارودي في (وعود الإسلام) «إن مشكلة العالم المعاصر كونية ولا بّد للجواب أن يكون كونياً، والإسلام هو هذا الجواب».

إنهم ينتحرون!!

(ويليام ستيرون) من أكثر الكتاب الأميركيين المعاصرين شهرة، وهو مؤلف رواية (اختيار صوفي) التي وصل رقم مبيعاتها إلى أحد عشر مليون نسخة، وقدّمتها السينما بالعنوان ذاته.

ويليام أراد أن يضع حدّاً لحياته ويضمَّ اسمه إلى قائمة الأدباء المنتحرين: أرنست همنغواي وفرجينيا وولف ورومان غاري وجاك لندن وهنري مونترلان وستيفان زفايغ ويوكيو ميشيما...

كآبةٌ حادّةٌ كادت أن تقود ستيرون إلى حافة الجنون... وبعد أن برأ من أوهامه وهواجسه تماماً تحدث عن الكابوس المخيف الذي سيطر على عقله وحياته. إنه مرض ليس من السهل تفسيره أو فهمه. هاجس غريب وطارئ قد يصيب أي شخص دون تمييز لعمر أو جنس أو مستوى اجتماعي وثقافي. إلا أن الشيء الأكيد أنه يصيب النساء أكثر من الرجال. لا أحد يمكن أن يفهم (سر) هذا المرض إلا الذي وقع في مصيدته، والذي قد يقوده للتفكير بالانتحار، وهو تصرف مخجل وسرّي جداً، لأنه ينطوي على أبشع أنواع العقاب.

ويليام ستيرون فكّر جدّياً بالانتحار... وبين تفكيره وحيرته باختيار الوسيلة الأكثر ملاءمة لإزهاق روحه، كانت ذكريات الأيام الحلوة تهاجمه من كل زاوية من زوايا المنزل، وتتردد على مسامعه ضحكات أبنائه وزوجته ليعدل في النهاية عن الفكرة التي استحوذت أياما طويلة على عقله، وقرر أن يستبدل الانتحار بالعلاج ليتابع مسيرة حياته.

لماذا أردت الانتحار؟

ويكون الجواب...

الكحول، أو بالأحرى الإدمان على الكحول هو السبب الرئيسي... هو الذي قادني إلى هذه المرحلة من اليأس فقدت معها الرغبة في الحياة... هذا ما حدث لأدباء أميركا السابقين: أونيل همنغواي وفوكنر... الجميع كان يلجأ إلى الكحول لعلّه يمنحه الهدوء والراحة لأعصابه ولتدفعه إلى الكتابة والإبداع... الكأس مهمتنا جميعاً... ولكن يبدو أننا لم نحسن الاختيار.

هذه هي النخبة العليا في المجتمعات الغربية... سقفها العالي... وهي رغم ما يغمرها من ضوء ويحيط بها من تكريم وتقدير، تريد أن ترحل عن الدنيا بصمت... ما الذي يستطيع المرء أن يقوله إزاء هذا كله سوى أن الإنسان المنقطع عن التبصر الديني سيصل إلى طريق مظلم مسدود مهما أحاطت به الأضواء ومُنح من تكريم... وكأنه يتساءل، وقد تضاءلت الدنيا أمام عينيه وتكوّمت تحت قدميه: ثم ماذا بعد؟ ماذا بعد الشهرة والغنى والمكانة والتكريم والأضواء وإشباع الحاجات الأساسية إلى

حدّ التخمة؟! إنه الفراغ المخيف والطريق المسدود والنهاية المفجعة المدوّمة فوق الرؤوس.

وأتذكر مقولة الأديب الفرنسي الوجودي المعروف (ألبيركامي): «ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى».

إنه الإحساس المكتظّ بالعبثية واللاجدوى... فليس ثمة قبل الموت وبعده سوى الأشياء ونقائضها... الحياة المكثفة والعدم... حلقة مفرغة لا يستطيع الإنسان كسرها والخروج منها مهما حاول... ومن ثم وكسعي للخروج من دائرة العذاب، يلجأ الإنسان إلى الانتحار لكي يختصر الرحلة المعذبة.

ها هنا تبرز قيمة الدين... قيمة الإيمان بالله وبالغيب واليوم الآخر... فهذه وحدها هي التي تكسر الحلقة المفرغة، وتفتح الطريق المسدود، وتصل الدنيا بالآخرة، وتمنح الحياة البشرية طعمها العذب، وأملها، ويقينها، ذلك الذي اغتاله الملاحدة والوضّاعون، فحكموا بالإعدام على الإنسان والجؤوه إلى قتل نفسه.

ويتذكّر المرء كيف أن الإنسان في المنظور الإسلامي هو أغلى كائن في هذه الدنيا، وأن من قتله بغير نفس أو فساد في الأرض ـ كما يؤكد القرآن الكريم ـ فكأنما قتل الناس جميعاً... وأنه ـ بتعبير الرسول ﷺ ـ **«بنيان الله في الأرض، ملعون من هدم بنيانه»**. ويتذكر جملة الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى حماية الدم البشري، وتندد بالانتحار باعتباره رفضاً لنعمة الله سبحانه، وعقوقاً لسخائه وكرمه وعطاياه... ويتذكّر بعض تلك الأحاديث.

عن جندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **«كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزّ بها يده فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرّمت عليه الجنة»**. (رواه البخاري ومسلم وابن ماجه).

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: **«من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجّأ بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومن تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»**. (رواه البخاري والترمذي والنسائي).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«ألا من قتل نفساً معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً»**. (رواه الترمذي وابن ماجه).

وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُقتلُ نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»** (رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه).

وعن عبد الله بن عمر، قال: وُجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازي، **فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.** (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: **«لو أن أهل السماء**

وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله في النار. (رواه الترمذي).

وعن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ **«لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه»** قالوا: وكيف يذلّ نفسه؟ قال: **«يتعرض من البلاء لما لا يطيق»**. (رواه الترمذي وابن ماجه).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لقتلُ مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا»** (رواه النسائي).

وهذا يكفي...

العولمة الثقافية وتحديات الشاشة الصغيرة

الحديث عن العولمة يطول، وجبهاتها عديدة، وقد قيل فيها الكثير، وكُتب الكثير، لذا سأقف في هذه العجالة عند جزئية محددة، تمثل آلية من آليات العولمة الثقافية وبوابة كبيرة من بواباتها، تلك هي «الشاشة الصغيرة» بمربعها المعروف: التلفاز، الكمبيوتر، الفضائيات، والإنترنت، وما يمكن أن يفعله الجهد التربوي في مواجهة تحدياتها، بعد إذ فرضت هذه الشاشة نفسها على المساحات الأوسع من ديارنا الإسلامية، وأصبحت زائراً يومياً اخترق بيوتنا وعقولنا، وأوغل حتى باتجاه غرف نومنا، حاملاً معه سرطان الثقافة الغربية بإيجابياتها وسلبياتها، بعلومها وفنونها، برؤيتها المادية الصرفة للحياة، ونزوعها الانحلالي السافل، وبهيميّتها الحيوانية... بتجاوزها الفاضح لمنظومة القيم الدينية والإنسانية والأخلاقية.

في حالة كهذه يغدو الجهد التربوي مع الأبناء ضرورة من الضرورات، ويصبح على الأب والأم أن يضعا نفسيهما في حالة إنذار من الدرجة القصوى والدائمة، ليس فقط لمراقبة الأبناء،

وإنما لتوجيههم ومنحهم الصيغ الأكثر ملاءمة في التعامل مع الشاشة الصغيرة، وإلا فإن المستقبل ينذر بالويل... بضياع الأبناء إزاء إغراء الشاشة الصغيرة وما تمارسه من استلاب وتفكيك لشخصياتهم وقيمهم، واختراق لسلوكهم وإيمانهم.

ولنتذكر حديث رسول الله ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...»** فها هي ذي المسؤولية التي تفرض على الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات، في اللحظات الراهنة، وإزاء تحديات الشاشة، واجباً ملزماً يتطلب تعزيز القيم الدينية والسلوكية للأبناء، وتحصينهم فكرياً وثقافياً، وتحديد زمن التعامل مع الشاشة الصغيرة، وبرمجة صيغ الإفادة منها، فيما يحدّ من تأثيراتها السلبية، وربما المدمرة، على كل المستويات.

إن الشاشة الصغيرة بمربعها المذكور، توظَّف اليوم وإلى حدّ كبير، لمطالب العولمة الثقافية، وتأكيد الرؤية الغربية المادية للحياة، ونشر الفاحشة، وتشجيع العنف والجريمة والشذوذ، والتشكيك بالقيم الدينية، وتدمير الثقة بالذات، وتأكيد العزلة الاجتماعية، وتفكيك الروابط الأسرية، وإشاعة الكسل العقلي، والثقافة المتضحلة الجاهزة، وإبعاد الكتاب وتقاليد المطالعة، باعتبارها المعلّم الأكثر فاعلية... هذا فضلاً عن التأثيرات الصحية السيئة، وهدر الوقت، وتضييق الخناق على مساحات الذكر والعبادة والدعوة إلى الله سبحانه.

وإزاء هذه كله لا بدّ من تفعيل الجهد التربوي حتى وتائره القصوى...

لا بدّ من حضور فاعل مؤكد للأب والمعلم والمدرس والأستاذ والشيخ والواعظ والخطيب... والمسجد والمدرسة والمجلة والكتاب، والبرامج الفنية والتعليمية الهادفة، قبالة الأطفال والصبيان والمراهقين والشباب قبل أن نخسرهم إلى الأبد...

لا بدّ من موازنة ضلال العولمة الثقافي بتعزيز قيم الإيمان وسلوكياته، عبر نشاط تربوي هادف، مبرمج، مرسوم، في البيت والمدرسة والمسجد وحلقات الإعلام، والمنتديات العامة... وإلا فهو الميل العظيم الذي حذّرنا منه كتاب الله، والذي يؤذن بالكارثة: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾[النساء: ٢٧].

قيم من خطبة الوداع

عندما حان موعدُ الحجّ من العام العاشر للهجرة، أعلن الرسول ﷺ أنه سيحجُّ بنفسه في الناس ذلك الموسم وأمر بالتجهز للذهاب إلى مكة. ثم ما لبث أن غادر المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة. وانهال المسلمون على بيت الله من كل مكان لكي يشهدوا أول حج على التقاليد الإسلامية الخالصة، التي لا دخل فيها من طقوسٍ وثنيةٍ، وليلتقوا برسولهم الكريم ﷺ ويقتبسوا عنه مزيداً من التعاليم.

وبدأت مراسيمُ الحج فانطلق آلاف المسلمين، القدماء والجدد، وراء نبيِّهم ومعلِّمهم وهو يُريهم مناسكهم ويعلّمُهم سننَ حَجِّهم. ورأى أن يفيد من فرصة التجمّع الكبير هذه فيلقي في أتباعه خطاباً جامعاً يؤكد فيه القيم والتعاليمَ التي بُعث من أجلها، وكأنه كان يدركُ، بإحساسه العميق أن هذه هي آخرُ فرصةٍ يلتقي فيها بحشد كبير من أتباعه كهذا الذي يلتقي به اليوم. فوقف بين أيديهم في عرفات وشفقُ المغيب يُلقي على جبهته مزيداً من النور والمهابة والجلال، وراح يلقي كلماته التي سُميت فيما بعد بخطبة

الوداع، ومن ورائه رجل جهوريُّ الصوت يصرخ بكلمات الرسول ﷺ ليُسْمِعَها ألوف الحجيج...

«**أيها الناس**، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءَكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقَوْن ربكم فيسألكم عن أعمالكم ـ وقد بلّغتُ ـ فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى ـ من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوسُ أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوعٌ كله، وإن كلَّ دمٍ كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضعُ دمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ الذي قتلته هذيل ـ فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية...

أيها الناس، إن الشيطانَ قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه أبدا، ولكنه يطمع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. أيها الناس، ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾..

أيها الناس، إن لكم على نسائكم حقّاً ولهنّ عليكم حقّاً. واستوصوا بهنّ خيراً فإنهنّ عندكم عوانٍ (أسيرات)، لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله... فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلّغت، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً أمراً بيّناً: كتابَ الله وسنةَ نبيّه.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه. تعْلَمنّ أن كل مسلم أخٌ للمسلم، وأن المسلمين إخوةٌ، فلا يحلّ لأمرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلِمُنّ أنفسكم. اللهم هل بلّغت؟».

أجابه المسلمون جميعاً: اللهم نعم، فقال «**اللهم اشهدْ**»... وبعد ذلك بقليل قال الرسول ﷺ للوفود المحتشدةِ حوله عند جمرةِ العقبة ما يُشعر بحلول الأجل القريب: «**خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحجّ بعد عامي هذا**»... ولم يحجّ بعد عامه ذاك فعلاً... وصدقت كلماتُه...

إنها خطبةٌ موجزة... خطبة الوداع تلك... ولكنها تضمّنت الكثير من القيم والمبادئ والممارسات التي جاء الإسلام لكي يزرعها في العالم فيحيي بها مواته، ويفجر العيونَ في قفره، ويحيل صحراءه المجدبة إلى حديقةٍ غنّاء يحيا في ظلالها الإنسان سعيداً متوحداً مطمئناً...

إن الرسولَ المعلّمَ ﷺ يعلن ها هنا حمايةَ العقيدة الجديدة لدم المسلم ومالِهِ. يضع حولهما سياجاً من الحرمة والوقاية إلى يوم الحساب... إنه الحق العام الذي لن يضيع في حمايته أحدٌ من الناس... ومع حمايةِ حقوق النفس والأموال مجابهةٌ صريحة للظلم الذي هو نقيضُ الحق... وهل ثمّة من ظلم كالربا والثأر مما غطّى على جاهلية العرب من أقصاها إلى أقصاها... ليس ثمّة ربا ولا ثاراتٌ بعد اليوم. وإنه ﷺ يبدأ كعادة الأنبياء والشهداء

والصديقين بنفسه وأقربائه أولاً لكي يعطي الإشارة بالأسوة... وليس بمجرد نظرياتٍ تطرح وكلماتٍ تقال...

لقد جاء الإسلام لكي يستأصل عبادةَ الشيطان بصيغها الفاضحةِ المنكرةِ، ويقضي على سطوته وهيمنتهِ على مقدرات الإنسان وسلوكه ومصيره... ولكن تبقى ثغراتٌ... ومساربُ... صغيرةٌ هنا وهناك، قد يعود لكي يتسلل منها مرة أخرى... ويبدأ نشاطه من جديد، فرسول الله ﷺ يحذر المسلمين ألّا يدعوا هذه الفرصة لخصمهم الأبديّ... إبليس... وأن يقطعوا الطريق عليه...

وثمّة دعوةٌ مترعةٌ بالشفافية والرحمة والمحبة لحماية حق المرأة... ووضعها في مكانها الكريم.. (إنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله)!!

وثمّة تأكيدٌ على ميراث النبوة العظيم، الذي سيتركه فيهم فيمكّنهم من مواصلة الحياة الوضيئة التي نقلهم إليها... كتابِ الله وسنةِ رسوله... شرط أن يعرفوا كيف يكون الالتزام... والاعتصام... وإلا فإنه الضياع...

وفي ختام خطبته المترعة بالإنسانية تلك، يعلن الرسولُ ﷺ أخوَّة المسلمين في كل زمان ومكان... وتلك هي العلامةُ المميزةُ... الفارقةُ... للمجتمع الذي بعثه وصنعه الإسلام من قلب التمزق والتناحر والصراع، وتلك هي إرادةُ الله ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[الأنفال: ٦٣]... وصدق الله العظيم.

وتأنس إليه وحوش الغاب

ما أروع الأخبار والأقاصيص التي يزخر بها تراثنا الروحي وكتب التراجم التي تتحدث عن هذا الرجل الصالح أو ذاك، يخرج إلى البراري فتأنس إليه وحوش الغاب، وتسير إلى جواره الأسود والضواري.

إنها الصداقة الحميمة التي يعقدها الإنسان المؤمن، الودود، المترع رحمة وشفقة، مع الكائنات من حوله... ليس مع الأحياء فحسب، بل حتى مع الطبيعة والأشياء والموجودات...

صداقة فريدة من نوعها تنداح دائرتها لكي تصل بين الإنسان والسماوات... بينه وبين الكواكب والسدم والأجرام والنجوم... وتعقد بين الأطراف كافة ما يمكن تسميته بالألفة الكونية، التي ما عرفها دين من الأديان ولا مذهب من المذاهب.

منذ البدايات الأولى في العمق الزمني البعيد، اقتطعت الأرض من الكتلة الكونية، وأعيد بناؤها لكي تكون جاهزة لاستقبال الإنسان... الأرض بكل مواصفاتها وحيثياتها ونسبها وأبعادها... الأرض بفيزيائها وكيميائها وجغرافيتها وجيولوجيتها... والتي تجعلها

مهيأة تماما لاستقبال الإنسان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

لقد أريدَ للأرض، منذ لحظات الخلق الأولى، أن تكون مسكناً صالحاً للإنسان.. وأن تنطوي على شبكة من الطاقات والإمكانات والمذخورات التي تمثل خزيناً استراتيجياً لا نفاد له لخدمة الإنسان، وتمكينه من مواصلة البقاء.

ومنذ البدايات الأولى وُضعت الشمس والقمر في مكانهما المناسب تماما لتقديم الإضاءة والدفء للإنسان، ورُتبت نسب المكونات الغازية بما يتيح استمرارية الحياة... ورُسمت، من أجل إدامة وصول الماء العذب لأفواه الزرع والضرع والإنسان، دورةٌ معجزةٌ تنبني حلقاتها المتعاقبة، بعضها على بعض، لتحقيق الهدف المنشود.

منذ البدايات الأولى أريد للعلاقة بين الإنسان والعالم من حوله أن تتشكل في أجواء المحبة والألفة والتعاطف.

حتى ونحن نطوف حول الكعبة في مواسم الحج والعمرة،

نشارك السدم والكواكب والأقمار والنجوم دورانها الأبدي الذي يذعن لأمر الله ويسبح بحمده... في مهرجانها الذي يعبّر بلسان الحال عن شهادة التوحيد المطلقة...

حتى ونحن نقرأ في كتاب الله سوراً بكاملها تحمل اسم هذا الحيوان أو ذاك، وهذه الحشرة أو تلك، نجد أنفسنا أمام دعوة لعقد صداقة من نوع ما مع هذه الكائنات... ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

والنحل أوحي إليها ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

والنمل يتلقى من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إشارة السلم بين الطرفين، حيث لا خوف من طغيان القوي على الضعيف، ومن يملك الحيلة على من لا يملكها ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٩]...

صداقة من نوع فريد، ليس مع عالم النمل فحسب، بل مع عوالم الطيور... فها هو ذا الهدهد يسفر لسليمان في أخطر مهمة سياسية بين مملكتين في الأوج من القوة والجبروت.

منذ البدايات الأولى أريد للأرض أن تتزيّن للإنسان... أن تمنحه الجمال، وأن تنتشر في ربوعها الحدائق ذات البهجة.. وأريد للإنسان أن يقابل هذا كله بالشكر والعرفان والامتنان...

وها هو ذا الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) ينحني على شجرة ورد... يمسّد على أغصانها اليانعة، ويقول: «**ليتني شجرة ورد تعضد**».. ويقف قبالة جبل أحد متواجداً، متأملاً، عاشقاً، ويقول لأصحابه مشيراً إليه: «**أحدٌ جبلٌ يحبنا ونحبه**»...

إنه ﷺ يختصر بكلمات قلائل قضية الألفة الميتافيزيقية بين الإنسان والكون... بينه وبين العالم... والطبيعة والكائنات... والأشياء...

أيّة علاقة حميمة هي هذه؟ وأيّة مساحة كبيرة منحها إياها هذا الدين، الذي دأب على وضع الإنسان والموجودات في مكانها الصحيح من خارطة الكون والعالم... كما أراد لها الله سبحانه أن تكون!

واحدة فحسب من معجزات هذا الكتاب

ضوابط النحو العربي ومعاييره وقوانينه لم توضع، كما هو معروف، إلّا بعد عقود من الزمن على بعثة الرسول ﷺ، في ضوء لغة العرب في أقصى درجات ضبطها وتجلّيها... فكيف استطاع هذا الرجل النبي أن ينجز كتاباً لم يتطرّق إليه أي خلل بأية نسبة كانت في بنيته اللغوية، رغم أمية هذا الرجل، ورغم تعامله مع الوحي، تلقياً وتلاوة، بطريقة شفاهية لم يستخدم فيها القلم لحظة واحدة... ورغم تنزّل الآيات والسور على مكث... أي على فترات زمنية تجعل أشدّ العباقرة معرّضين للسهو والنسيان، وتجاوز هذه المفردة أو تلك من شبكة الضوابط، والوقوع ـ بالتالي ـ في الخطأ؟!.

كيف بالنبيّ الأمي الذي لم يكن يحسن القراءة والكتابة، والذي كان مجرد وسيط بين السماء والأرض، لنقل ما يتنزل من كتاب الله؟!.

إنها معجزة أخرى بكل تأكيد لهذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، جنباً إلى جنب مع معجزات القرآن الأخرى، التي تنضفر

لكي تؤكد بشكل قاطع لا ينطوي على أي هامش للاحتمال، وبأية نسبة كانت على الإطلاق... أنه منزّل من لدن حكيم عليم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولطالما أشار القرآن الكريم إلى إحكام البنية اللغوية لهذا الكتاب لكي يستوعبه العربي، ولكي يتأكد المتلقون من العرب يومها، ومن الشعوب والأمم التي ستجيء بعدهم، أنه كتاب منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

فإذا ما أضفنا إلى هذه المعجزة اللغوية، المعجزة البيانية، وإذا ما أضفنا إليهما المعجزة التشريعية، والمعجزتين العلمية والمعرفية؛ وجدنا أنفسنا أمام عشرات الشواهد ومئاتها على مصداقية هذا الكتاب المدهش.

ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد... أما مرضى القلوب والعقول، فإن ألف معجزة لن يكون بمقدورها أن تزيل طبقة الصدأ عن قلوبهم وعقولهم، لكي تقفهم وجهاً لوجه أمام الحقائق الناصعة، وتمنحهم الاقتناع. وهي على أي وجه من الوجوه، حالة مرضية لا يحسب حسابها لدى الحديث عن إعجاز القرآن.

وفي المقابل، فإن هنالك المئات والألوف وعشرات الألوف ممن ساقتهم المعجزة إلى التسليم بهذا الدين، وبالمصداقية المطلقة لكتابه المدهش.

ومن بين هؤلاء عشرات ومئات ممن تحدثوا عن أسباب انتمائهم لهذا الدين، وكان يقف على رأسها ولا ريب إعجاز القرآن...

ومن بين هؤلاء نتذكر المحاولة القيمة التي نفذها العالم الفرنسي المشهور (موريس بوكاي) في كتابه المعروف (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة)، والتي حاول فيها ـ وهو الرجل العلماني الذي لا يدين بدين كما أكد هو نفسه ـ أن يختبر مدى مصداقية المفردات المعرفية التي انطوت عليها الكتب الدينية الثلاثة وعدم تعارضها مع الكشوف المعرفية الحديثة.

وكانت النتيجة أن تسعة من كل عشرة من هذه المفردات الواردة في التوراة تسقط بإحالتها على الكشوف المعرفية المعاصرة، ولا يمرّ سوى العشر، وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل، أما في القرآن فانها تمرّ جميعاً، عشرة من عشرة!!

ويخلص الرجل إلى القول بأن ذلك لا يمكن أن يكون من صنع إنسان، وأن القرآن الكريم لا بدّ وأن يكون مصدره خارج حدود القدرة البشرية، وبكل تأكيد...

إذ كيف تسنّى لمحمد ﷺ أن يزيح من أخطاء التوراة والإنجيل تسعة أعشارها، ولا يتقبل سوى العشر الصحيح في ضوء

خبرة معرفية لم يقدر لها أن تتشكل وتتضح إلّا بعد مرور أربعة عشر قرناً؟!

ويعلن الرجل إسلامه... واحداً من عشرات ومئات وألوف ممن ساقتهم معجزة القرآن إلى التسليم بهذا الدين...

٤٦

وأنت بعدُ في الدنيا؟!

الصحابي الجليل والشاعر المعروف عبد الله بن رواحة، يتسلم القيادة في معركة مؤتة (٨هـ) بعد استشهاد رفيقيه جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة رضي الله عنهما... يقاتل الروم ببطولة نادرة حتى يجفّ ريقه... يتقدم إليه أحد إخوانه المقاتلين فيعطيه بضع تمرات تعينه على مواصلة القتال... (خذ... شُدَّ بها صلبك فإنك لقيت في يومك هذا ما لقيت)... يقول له... يضع إحداها في فمه محاولاً مضغها فتستعصي على الانزلاق في ريقه المتيبّس... ينظر فيرى أخويه ممزقين في ساحة المعركة، وقد سبقاه إلى هناك، فيلفظ التمرة ويخاطب نفسه مندهشاً: وأنت بعدُ في الدنيا؟ ثم ما يلبث أن يواصل القتال حتى تمزّقه سيوف الروم...

يا الله!... كم هي تافهة، منحسرة، متضائلة، هذه الحياة الدنيا في أعين المعلّمين الكبار من أصحاب رسول الله ﷺ؟! لقد استكثر ابن رواحة على نفسه ساعات، بل دقائق من الحياة فأعلن

رفضه إياها ببطولة نادرة، واستأنف القتال ملتحماً بالأعداء من أجل أن ينال الشهادة ويلحق برفيقيه...

ذلك أن الحياة والموت كانتا عند أولئك الكبار حالة واحدة ذات وجهين. فأما أولهما فحلم من الأحلام العابرة، وأما ثانيهما فهو الحقيقة الصلبة الخالدة التي كُتب لها الدوام.. وأن الانتقال من حال إلى حال لا يعدو أن يكون نقلة لا تكاد تُرى، ولا تستحق كل هذا الهم والحزن والخوف الذي ينتاب معظم الناس وهم يفكرون في الموت أو يقتربون منه...

وكان رسول الله ﷺ قد حذّرنا من الحرص على الحياة.. الحرص الذي يتجاوز حده المعقول، ويرغم الإنسان على أن يتشبث بالدنيا... أن يصير عبداً لها، وأن يخضع لإغوائها الذي يضع الإنسان في دائرة الأسر الذي يُفقده الاتصال بالعالم، ورؤيته على حقيقته...

بل إن بعض الناس يبلغ بهم الأمر أن يتصوروا أنهم خلقوا لكي لا يموتوا... لا يدخل دائرة قناعاتهم وسط لهاثهم المحموم وراء إغراءات الحياة الدنيا وصخبها، أن النهاية قريبة، وأن الموت يقف لهم بالمرصاد... على بعد خطوات...

ومن ثم، في غمرة هذا الضباب الذي وضعوا أنفسهم فيه، تهتز لديهم الموازين، وتتميع القيم، وتغيب الرؤية الصائبة لمهمة الإنسان في هذا العالم...

وعندما يشيخون، رغماً عنهم، لا يكفون عن اللهاث المحموم

وراء الجاه والمال، متذرعين بأن عليهم أن يهيئوا لذريتهم مستقبلاً محوطاً بالضمانات، وما هو في حقيقته سوى الوجه الآخر لتشبثهم بالحياة، وحرصهم عليها، ورغبتهم في الاستمرار بمواجهة تحديات الموت والفناء.

أعرف رجلاً من أثرياء مدينتي كان يدلف إلى الثمانين... وكان يهرع يوماً بيوم إلى عمارة كبيرة كان يشرف على بنائها في شارع كبير من شوارع المدينة الرئيسية... فلما اكتملت العمارة، لم يجد بأساً في أن يؤجر أحد محلّاتها لحانة تبيع الخمور وتستقبل المدمنين...

ومن عجب أن الرجل كان يصلّي ويصوم ويقرأ القرآن... لعله كان يبرّر لنفسه ضرورة توفير الضمانات لذريته من بعده... نوع من خداع الذات والتحايل على الموت...

ومن عجب ـ كذلك ـ أن معظم الذين يكدحون من أجل إيجاد الضمانات لأبنائهم، يجيء هؤلاء الأبناء فلا يقدّرون جهد الآباء حق قدره، ويبعثرون الثروات التي جاءتهم دونما عناء...

إنها أقبح صفقة يمكن أن يمارسها الإنسان... أن يبيع آخرته بدنيا غيره...

وثمّة فرق كبير بين هذا النمط الذي تعج به المدن في ديارنا الإسلامية، وبين ابن رواحة الذي استكثر على نفسه دقائق مضافة من الحياة!

أيمكن أن يكون هذا هو أحد أسباب انكسارنا في الزمن الرمادي الذي نعيشه؟

نعم... وبكل تأكيد، إذا تذكرنا رؤية الرسول ﷺ، المترعة بالشفافية والتي طالما دفعته إلى تحذير أمته من مأساة الالتصاق الزائد بالحياة الدنيا: «ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»!!

الله سبحانه... واللدائن الرخوة

هنالك خطأ كبير يمارسه الشكوكيون وأنصاف المؤمنين... خطأ يدعو للرثاء والسخرية، وهو جعل الدماغ البشري، تلك اللدينة الهشة ذات الإمكانات المحدودة، حاكماً على الوجود الإلهي والكوني، قديراً على اختراق الظاهر إلى الباطن والوجود إلى الغيب... وهي مهمة لم يرد للعقل البشري أن يتعامل معها ابتداء ويكشف سرّها المنوط بالوحي القادم من السماء... وحده.

إننا ندخل معادلة غير منطقية على الإطلاق عندما نحاول أن نحمّل الدماغ البشري ما لا يطيق، ونرغمه على الدخول في مجاهيل لا طاقة له البتة في اكتشاف سرّها المجهول.

ولحكمة يريدها الله سبحانه تنزّلت الأديان لكي تمنح الإنسان الجواب على جانب من الأسئلة التي تؤرقه في هذا المجال... وتبقى جوانب أخرى في علم الله وغيبه الذي لن تستطيع عقول البشر جميعاً أن تجتازه إلى العمق، بل أن تبلغ حافاته: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

إننا نتوهم ـ بعقولنا المهيّأة للتعامل مع العالم الصغير ـ الكرة الأرضية التي لا تزيد عن أن تكون هباءة في مسرح الكون الكبير... نتوهم أننا نملك القدرة والأدوات على حلّ ما يبدو معضلات كونية، والاطلاع على بعدها الغيبي، تماما كما لو أن مجموعة من النمل اجتمعت لكي تعرف كيف استطاع المهندس البشري إقامة ناطحات السحاب بهذا الارتفاع الهائل دون أن تميل أو تسقط على الأرض... أو يدرك سرّ نزول المطر بالغزارة التي تلحق الأذى بمجمّعاتها السكنية.

إننا ونحن نمارس هذه اللعبة الصبيانية المضللة، نحاول أن نجمع تفاحة إلى برتقالتين ونقول بأن حاصل الجمع ثلاثة فيما هو مستحيل في المنطوق الحسابي.

ولطالما طرح الشكوكيون وأنصاف المؤمنين على أنفسهم هذا السؤال: إذا كان الله سبحانه أزلياً فهل (يعقل) ألا تكون له بداية؟ وإذا كان الكون بأجسامه وفضائه من خلق الله فأين هي حافاته الأخيرة؟

أسئلة تدعو للشفقة لأن الإجابة عنها بالقدرات العقلية المحدودة التي منحها الله الإنسان، مستحيلة بكل معيار من المعايير.

لقد وضعَنا الله سبحانه في الموقع المناسب تماماً لمهمتنا البشرية في العالم، وقال لنا في كتابه وسنة نبيه ﷺ أنَّ علينا أن نتعامل مع فيزياء العالم... مع الكتلة، لكي نعرف أبعادها ونكتشف أسرارها ونوظفها لتنمية الحياة وترقيتها فيما يجعلها ملائمة

للمهمة الكبرى لخلق الإنسان ألا وهي عبادة الله سبحانه... وحذَّرَنا رسول الله ﷺ من أن نتجاوز مهمتنا هذه، فنعبر الفيزياء إلى ما وراءها، إلى ما سماه الفلاسفة (الميتافيزيقا) فيما لا نملك معه أدوات العمل، فقال: «**تَفَكّروا في آلاء الله ولا تَفَكّروا في الله**».

فكأنه ـ بهذا ـ أعطانا خارطة العمل المرسومة بعناية لأداء مهمتنا الاستخلافية ـ الحضارية في هذا العالم.

ويوم أن أصغينا للنداء، والتزمنا برنامج العمل، عرفنا كيف نتحضّر، وكيف نكون سادة الدنيا... ملكنا الأرض وكانت عيوننا معلقة بالسماء... سلّمنا بمعطيات الوحي ومضينا لكي نتعامل مع الوجود فنعيد صياغته بما يريده الله سبحانه ورسوله ﷺ.

وبمرور الوقت، وبتأثير الفلسفة اليونانية وإغوائها، زاغت شرائح من الآباء والأجداد عن الطريق المرسوم... وراحت تركض وراء ما يمكن اعتباره سراباً (الميتافيزيقا)... على اعتبار أن فكَّ طلاسمها أمر مستحيل... فضيَّعت بذلك زمنا وجهداً كبيرين، كان يمكن لو أُحسن التعامل مع الدنيا بالمنطوق القرآني لا اليوناني؛ أن نمضي قدماً في سلم الإنجاز الحضاري، وألا نسمح للغربيين الذين لا يعرفون الله (سبحانه) أن يسبقونا ويمسكوا برقابنا.

ولا تزال خرائط العمل القرآنية والنبوية مفروشة بين أيدينا، ولا نحتاج لكي يكون لنا مكان في العالم؛ سوى أن نشمّر عن ساعد الجدّ، وأن نتعامل معها بأقصى درجات الصدق والفاعلية والذكاء.

حول معجزة الفتح

القوة الهائلة التي دفعت العرب المسلمين إلى فتح العالم وتحدّي جغرافيته تثير الدهشة... لكن هذه الدهشة سرعان ما تزول إذا عرفنا الدافع الكبير الذي كان يقف وراء هذه القوة، ويشحنها، ويمدّها بالوقود.

إنها العقيدة الانقلابية التي تتمحور عند شعار **(لا إله إلّا الله)**... هذا الشعار الذي يستأصل من نفس المؤمن ووجدانه وعقله كل صيغ التحكّم والقهر والتردّد والخوف والاستلاب، ويدفعه حراً طليقاً لا يصدّه شيء أو قوة في هذا العالم.

تحرير حتى الأعماق من ظلال الصنميات والطاغوتيات... وإيمان مطلق بأن الله سبحانه وحده هو الذي يحكم هذا الكون، ويتحكم بمصائره ومقدّراته، وأن الإنسان ما هو إلا ستار لقدره وأداة لمشيئته، يفعل بها ما يشاء، ويوجهها حسبما يشاء، ويختم على مصيرها كما يشاء.

وليس الموت أو الشهادة سوى حلقة، أو نقلة، أو لحظة عبور

من حال إلى حال، ومن مرحلة إلى مرحلة، في خارطة طويلة ممتدة مرسومة في علم الله.

من هنا كان الاندفاع الكبير، وبشعار **(لا إله إلّا الله)** هذا الذي يملك القدرة على نقل الجبال من مواضعها، كما يقول رجاء غارودي في (وعود الإسلام)، تمكّن الفاتحون من إزالة العروش، والإطاحة بالأكاسرة والقياصرة، وتغيير خرائط الدنيا... في مدى زمنيّ قياسيّ...

والعجيب أن الفاتحين العرب ما كانوا يعرفون سوى القتال البرّي الذي تمرّسوا على بعض أساليبه في الجاهلية والإسلام... ولكن الذي حدث أنهم استجابوا لتحديات الجغرافيا، وقاتلوا في الجبال والغابات والمستنقعات والبحار والأنهار... وانتصروا...

يبدو أن شعار **(لا إله إلّا الله)** لم يدفعهم فقط إلى الموت والشهادة، ويجعلهم يتسابقون إليهما، ولكنه علّمهم ـ أيضاً ـ كيف يتعاطون مع الحالات المختلفة في جبهات القتال ويتفوقون عليها...

هذا هو السرّ الذي تنبض به العقائد والأديان... إنها تدفع... وتعلّم... وتمكّن من الاستجابة للتحديات... في وقت واحد... وبهذا تصنع الأعاجيب.

ولنتذكر ـ أيضاً ـ أن الرسول القائد ﷺ برؤيته الاستراتيجية الثاقبة حاول أن ينبّه أصحابه وجنده إلى هذا... إلى أنهم سيجدون أنفسهم مضطرين لممارسة صنوف من القتال قد تكون

جديدة عليهم، فراح يؤكد عليها، ويدعوهم للتأهُّب أهبتها وأخذ الاستعداد لها...

ورغم أنه كان يمارس تدريبهم في المدينة، في الأشهر الأولى للهجرة، حيث لم تكن دولة الإسلام قد تجاوزت أطراف يثرب، وحيث لم يكن الأمر يتطلب سوى خبرات القتال البرّي؛ فإنه ﷺ كان يحدّث أصحابه ويحضّهم على فنون القتال البحري ويقول: **«غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البرّ، والمائد فيه كالمتشحّط في دمه، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية جميعاً».**

يومذاك... كانت البحار بعيدة، ولكن بصيرة رسول الله ﷺ، كما علمنا دائماً، تتجاوز المرحليَّ العابرَ إلى الممتد البعيد، وتخطط للمديات المتطاولة... وكان يعرف جيداً أن أيام القتال البحري ستجيء، وستجيء معها أنماط أخرى من القتال والتحديات... فأراد أن يُعِدَّ أصحابه لذلك... ولقد كان أصحابه (رضي الله عنهم) عند حسن الظن...

٤٩

نيرفانا لبعض المسلمين

بعض المنتمين لهذا الدين بحاجة إلى نيرفانا هندية تزيل شحوم الورم والإحساس السرطاني بالذات...

رياضة نفسية قاسية ومتواصلة، من أجل التخفّف وإلغاء (الأنا)، التي يعرف شياطين الجن والإنس كيف يتسلّلون منها إلى المؤمنين!

ولقد كان أحد أسباب التصوّف الإسلامي هو إعلان الحرب على (الأنا) وتضييق الخناق عليها، والتجرّد لمحبة الله سبحانه وطاعته... ومع ذلك كنا نجد العديد من المتصوفة لا يكفّون من الحديث عن أنفسهم وإنجازاتهم بإعجاب مبالَغ فيه يثير القرف والاشمئزاز في نفوس سامعيهم.

وأعرف عدداً من دعاة الإسلام لا يكفّون ـ هم الآخرون ـ من الحديث عن أنفسهم وإنجازاتهم، وكأنهم يحرقون أوراقهم بأيديهم فلا يدّخرون شيئاً خالصاً لله...

ولقد أخذت هذه الحالات (النرسيسية) ـ إذا صحّت التسمية ـ تزداد انتشاراً بمرور الأيام، وأصبح الإنسان يلتقي ـ

عبر المجالس ـ أناساً همّهم الأكبر أن يستأثروا بالحديث، أو أن يدور الحديث حول ذواتهم... ورغم أن الآخرين يصغون إليهم بانتباه ـ بحكم مطالب التأدّب في المجالس ـ فإنني على يقين من أن القرف يملأ نفوسهم وحلوقهم وهم يتحلّقون حول هذا النمط من الأدعياء.

لا أدري كيف يبيح المسلم لنفسه أن يتحدث عن نفسه إلّا إذا سُئل بطبيعة الحال... ألا يعلم أن كيل المديح للذات يجلب غضب الله ورسوله، ولعنة الناس أجمعين؟

إنها صفقة خاسرة على أيِّ وجه من وجوهها... وإنها لخسارة مزدوجة بمعايير الآخرة والدنيا... أما الأولى، فأمرها معروف... وأما الثانية، فلأن الذين يمارسون اللعبة يكسبون كراهية الآخرين... وحقدهم... والنفور منهم... بدلاً من الإعجاب والتقدير اللذين كان في ظنهم أنهم سيحصلون عليهما.

ثمّة حديث نبوي صريح وحاسم يحذّر من هذا المنزلق الخطير، ويعد أصحابه بمصير تقشعر له الجلود... قال رسول الله ﷺ: **«إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استُشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن.**

فقال: كذبت، ولكنك تعلّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار...» إلى آخر الحديث الشريف.

وكان المفروض بالنسبة لبعض الكتّاب والدعاة الإسلاميين في الأقل، أن يتعلّموا منه... أن يعودوا إلى أنفسهم فيرغموها إرغاماً على الكفّ عن هذا التغني المَرَضيّ بالذات...

دعِ الآخرين يتحدثون عنك وعن إنجازاتك، ولا تتحدث أنت عنها... هكذا كنت أقول دائماً لعدد من المعارف والأصدقاء، من أولئك الذين آثروا الدخول في اللعبة، واعتقلوا أنفسهم في زنزانة (النرسيسية): الأنا...

كثيرون منهم لم يأبهوا للنصح، وواصلوا حياتهم وفق التقاليد نفسها... يبدو أنها ـ بالنسبة إليهم ـ حالة مَرَضية يصعب التحرّر منها...

والوقاية خير من العلاج... هكذا أرادها رسول الله ﷺ، ولكن ما دام الفأس قد وقع في الرأس، كما يقول المثل، فلابد من العلاج...

والعلاج هو (النيرفانا) التي تعرف كيف تزيل شحوم (الأنا) من النفس، وتضيّق الخناق على ورمها السرطاني الجائع!!

تعالوا نحسُب

تعالوا نحسُب ما تبقى من عمر كل واحد منا نحن الذين تجاوزنا الستين، عشرون سنة على الأكثر... أليس كذلك؟

حسناً... لنطرح منها عشر سنوات من النوم، ونضيف إليها خمس سنوات أخرى مع الأمراض والأسقام التي تمنع الإنسان من أن يحيا حياة طيبة ولو في حدودها الدنيا، فضلاً عن أنها تعيقه عن العمل والنشاط، فما الذي يتبقى؟ خمس سنوات فقط... أليس كذلك؟

فهل تستحق هذه السنوات الخمس كل هذا الهمّ، والقلق، والحزن، واللهاث، والحرص، والجبن، والمذلة... إلى آخر ما هنالك من منغّصات تجعل الحياة مُرّةً كالعلقم؟

خمس سنوات فحسب، ألا يدفع مداها الزمني القصير جداً، الإنسانَ إلى أن يراجع نفسه، ويعيد النظر في حساباته، فيغيّر معادلات هذه الحياة وأرقامها بما يتلاءم مع هذا المدى الزمني المحدود؟

أن يكفَّ عن اللهاث... والقلق... أن يتخفّف من الهموم

والأحزان... أن يتمّرد على دائرة الجبن والمذلة... وأن يرتفع فوق هذا كله، حرّاً، متوحّداً، آمناً، مطمئناً وسعيداً.

كم منا من فعل ذلك، وحسبها قبل ألّا يقدر على الحساب؟

لا أحد!!

لكأن الحياة الدنيا تملك سحراً عجيباً... نوعاً أسطورياً من المغناطيسية التي تشدّ الإنسان إلى الأرض، وتسمّر قدميه وعقله وروحه ووجدانه فيها... حتى ليخيّل للكثيرين أحياناً أنهم خُلقوا لكي لا يموتوا.

والآن... دعنا من الذين تجاوزوا الستين، ولم يتبق لهم من الحياة (الحقيقية) سوى خمس سنوات فحسب، ولنتراجع في سلّم الأعمار إلى من هم في الثلاثين أو الأربعين... كم تبقى لهم وفق الحساب المذكور؟ عشر سنوات في الكثير! ألا يتحتم أن يدفعهم ذلك، هم الآخرون، إلى التحرر من كل صنوف التعاسة والشقاء والهموم والأحزان والقلق واللهاث، التي تجعل حياة الإنسان، حتى وهو في عزّ شبابه، لا تستحق أن تعاش؟ وحتى لا يتهم هذا المنظور الذي يبدو للبعض متشائماً، بالسلبية، فإن الحساب المذكور ينطوي بالضرورة على بعده الإيجابي... إنه يجيء ـ لمن يملكون الحكمة ـ حافزاً على المزيد من العمل والإنجاز... المزيد من الذكر والعبادة... المزيد من تنمية الرصيد الدنيوي، لكي يخدمهم هناك يوم الحساب... إذ ما دامت الفرصة المتبقية

محدودة... محدودة جداً... فإن الذكيَّ الذكيَّ هو من يعرف كيف يوظّفها لمصلحته... ومصيره...

من أجل ذلك نادانا رسول الله ﷺ، وحذّرنا في الوقت نفسه ألّا نحسن توظيف الزمن المحدود المتاح لنا، فقال: «**اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»، وأن الله سبحانه سائل ابن آدم يوم القيامة عن خمس: «**عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟**».

ومن أجل ذلك نبّهنا القرآن الكريم مراراً وتكراراً إلى تفاهة الحياة الدنيا، وقصرها وانصرامها، فقال ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ووصف لنا هذه الحياة كما لو كانت مجرد حفل تعارف ينفضّ سامروه بعد ساعة أو ساعتين: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، ونقل لنا جانباً من حوار الإنسان مع الإنسان يوم الحساب: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]، ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

ألا يدفعنا ذلك ـ مرة أخرى ـ إلى أن نعيد النظر في حساباتنا، وألّا نجعل الدنيا أكبرَ همّنا، ومبلغ علمنا، كما كان يدعو الرسول المعلّم عليه أفضل الصلاة والسلام؟

أدوار ثلاثة

هناك أدوار، أو طبقات ثلاث، لتأكيد الإيمان والتعبير عن مطالبه ومقتضياته: طبقة القناعات العقلية، وطبقة القناعات القلبية والوجدانية، وطبقة التنفيذ العملي السلوكي للقناعات الإيمانية في واقع الحياة اليومية، ومن ثم التحقُّق بالتوحُّد بين العقل والقلب والسلوك.

ومشكلتنا في كثير من الأحيان أننا نملك القناعات العقلية، بل إنها ربما تضخمت أكثر مما يجب على حساب الطبقتين الثانية والثالثة.. وأحياناً أخرى تطغى القناعات القلبية على حساب العقل، وفي الحالتين لا نكاد نلحظ انعكاساً صادقاً وأميناً على الواقع العملي والسلوك، الأمر الذي يمثل جوهر مأساة العديد من المسلمين في العصر الحديث.

ورغم أن الدين المعاملة، كما يحدثنا رسول الله ﷺ، ورغم أن المسلم الحق، كما يؤكد الرسول أيضاً، يتميز بالسماحة إذا باع وإذا اشترى؛ فإننا نجد الكثير من الناس يشتكون من سوء معاملة إخوانهم من الذين لا تفوتهم صلاة. حتى لقد أصبح هذا أشبه

بالوصمة التي يوصم بها بعض البائعين من المسلمين الملتزمين... بل إن بعض المتشككين والكسالى يذهب إلى حدّ القول: علامَ أصلّي إذا كان بعض المصلين أنفسهم لا تأخذهم بالذين يتعاملون معهم رحمة أو شفقة؟!

أيُّ التزام هذا والخندق عميق بين قناعات الإيمان العقلية والقلبية، وبين واقع السلوك اليومي في التعامل بين الناس؟

إنها مفارقة محزنة والحق يقال، وإذا أردنا أن تكون حياتنا إسلاميةً حقاً، إذا أردنا ألّا نغضب الله ورسوله ﷺ ونحن نجتاز رحلتنا اليومية عبر الحياة، ويلتقي بعضنا بعضاً، ويتعامل بعضنا مع البعض الآخر، فإن أول خطوة يتحتم علينا أن نخطوها، هي ردم الخندق، وتدارك الفجوة، وإعادة التوحّد بين العقل والقلب والسلوك.

ولعل هذه بالذات هي أحد أهم عوامل انكسارنا الحضاري، ولعلها السبب الأكثر أهمية في تحوّل أمتنا إلى قصعة يتداعى عليها الجائعون من كل مكان، كما سبق وأن أنبأ به رسول الله ﷺ.

إن الإيمان ـ بداهة ـ ليس مجرد قناعة يقبلها العقل ويسلّم بها، كما أنها ليست مجرد يقين أو تسليم قلبي بمفردات الإيمان... إنها، إلى جانب هذا وذاك، جهد موصول، أو جهاد كبير، بتعبير الرسول ﷺ لملاحقة كل ما من شأنه أن يصدّ هذه القناعات عن

التحقق في واقع الحياة السلوكية للمسلم، ويحفر خندقاً بين العقل والقلب والممارسة!

ولطالما حدّثنا القرآن الكريم أن الله سبحانه ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وأنه سبحانه ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] هذا التغيير المكافح الذي يسعى جاهداً للحفاظ على التوحد والالتحام بين العقل والقلب والسلوك.

إن المسلم الجادّ مشروع يومي مفتوح للتسامي والصعود... وإن ثمّة محطات أربع تنتظره، وتتطلب منه أن يشحذ همّته لاجتيازها جميعاً في رحلة العمر: الإسلام... الإيمان... التقوى... وصولاً إلى المحطة القمة: الإحسان الذي يضعه قبالة الحضور الإلهي المؤثر، ويدفعه إلى الإبداع والإتقان في كل ما يمارسه من أعمال...

ولن يتحقق ذلك إلّا بأن تكون نقطة الانطلاق متمركزة عند الحالة التي يتوحد فيها المسلم عقلاً وقلباً وسلوكاً... وإلّا فإن ألف سنة من الجهد اليومي لن تقرِّبه خطوة واحدة من المطلوب، ولن تمكِّنه من اجتياز المحطات الأربع التي تنتظره عبر رحلة الحياة...

من ثمار كتاب الله...

ظاهرة الارتباط الوثيق بين المكتبة كمؤسسة وبين الحضارة، تكاد تكون بديهية من البديهيات التي لا يُماري فيها أحد، بل إن المكتبة تعد واحداً من المؤشرات على درجة التطور الحضاري لأمة ما من الأمم أو شعب من الشعوب.

وبمجرد متابعة عدد المكتبات في كل دولة، وما تتضمنه من مؤلفات، وحجم الخدمات التي تقدمها، وعدد الباحثين والمطالعين والطلبة الذين يترددون عليها، يمكن للمرء أن يحكم على المرحلة التي بلغتها تلك الدولة في سلّم الحضارة.

ذلك أن المكتبة تضم جناحيها على حصيلة الإنجازات الفكرية والثقافية لأي شعب. وليس ثمة مؤسسة أخرى كالمكتبة يمكن ان تلخّص طبيعة المسار الفكري والثقافي للأمم والشعوب، هذا إلى أن اتساع نطاق المتعاملين مع المكتبة أو انخفاضه، يمكن أن يوجز لنا ـ هو الآخر ـ المدى الذي بلغته هذه الأمة أو تلك.

ونحن لو التفتنا إلى عصور الازدهار والتألق الحضاري الذي بهرنا به العالم يومها، لوجدنا كيف كان (الكتاب) وكانت

(المكتبة) بالتالي واحدة من أهم مراكز الثقل، وعوامل الدفع والإنجاز في مسيرة تلك الحضارة. ويكفي أن نقرأ بعض شهادات الباحثين الغربيين لكي يتأكد لنا ذلك.

يقول المؤرخ الفرنسي المعاصر (أدوار بروي) في كتاب (تاريخ الحضارات العام): (... لقد بلغ من غنى التأليف في العالم الإسلامي ما يجعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرّف به في فهارس علمية. وقامت في حواضر البلاد الإسلامية الكبرى دور للكتب غصت بعشرات الألوف من الكتب، جرى تصنيفها على نظم فنية خاصة، روعي فيها تصنيف العلوم على أبواب ومطالب، وقام على خدمتها جيش من النسّاخ والورّاقين... كل هذا كان يفترض عدداً كبيراً من القراء والمطالعين وطائفة كبيرة من الكتاب وحملة الأقلام والمفكرين).

ويقول الباحث الفرنسي المعاصر الدكتور (موريس بوكاي) في كتابه (دراسة الكتب المقدسة): (لقد أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية. في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة. ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمائة ألف مجلد... وكان الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة فيها).

ويقول المستشرق المعروف (فرانز روزنثال) في كتابه (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي): (كانت المكتبة الخاصة بالنسبة للعالم المسلم، أعزّ ما يملكه، وكان فقدها كارثة

تترك في نفسه ألماً أشدَّ من الألم الذي يشعر به عالم اليوم إذا ما فقد كتبه).

وهناك غير هذه وتلك عشرات الشهادات ومئاتها على ما كان للكتاب والمكتبة من دور فعال في تاريخنا الحضاري.

أليست هذه الحضارة المتألقة، وتلك التقاليد المعرفية الأصيلة، هي ابنة كتاب الله الذي تنزلت كلماته الأولى تأمر الإنسان بالقراءة، وتمجّد العلم والقلم؟ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]...

أليست هي ابنة كتاب الله، الذي دعا إلى العلم في مئات الآيات، وحثّ المسلم على إعمال قدراته الحسية والعقلية لاكتشاف العالم، وما ينطوي عليه من سنن ونواميس وكنوز وطاقات؟

أليست هي ابنة هذا الدين الذي أعلن رسوله الكريم ﷺ بأن **«مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء»**؟.

٥٣

فرصة للخدم والعبيد

ليس ثمَّة كالحضارة الإسلامية منحاً للفرص المفتوحة للخدم والمستضعفين والعبيد... لقد شكّل هؤلاء دولاً في تاريخ هذه الحضارة، حكمت القرون الطوال... ولم يقل أحد من أبناء الأمة وقادتها على السواء أن هذا لا يجوز!

ودائماً كان بمقدور الحلقات الدنيا أن تتحرك، وأن تصعد إلى الأعلى، وأن تبلغ القمة، ليس في مجال الحكم فحسب، بل في مجال المال والإدارة والمجتمع والنشاط العلمي والثقافي، وسائر مناحي الحياة.

إذا كانت البداية أن يصبح بلال الحبشي الأسود سيداً للمسلمين، وأن يتم اختياره من بين سائر الصحابة والأتباع لكي يرفع أول نداء للصلاة على سطح الكعبة بعد تحريرها، ونعلاه يخفقان فوق رؤوس السادة والكبار من طلقاء مكة... وإذا كانت البداية أن يقول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخاطباً أبناء أمته: **«اسمعوا وأطيعوا ولو استُعمل عليكم عبد أسود كأن رأسه زبيبة»**...

وكلُّ ما سيتحقق بعد ذلك... كلُّ ما سيشهده مجرى التاريخ الإسلامي عبر تدفقه الصاخب من صعود الفقراء والكادحين والعبيد والمستضعفين إلى أعلى السلم... إنما هو حالة طبيعية... حالة طبيعية تماماً، في ساحة حضارة فتحت صدرها للجميع، حتى أولئك الذين لم ينتموا للإسلام، وفي ضوء تعاليم دين لم يفرق مطلقاً بين الأسود والأبيض، والسادة والعبيد، والأغنياء والفقراء...

ولا يزال اسم (بلال) ينساب على ألسنة المسلمين مسبوقاً بكلمة (سيِّدنا)، ألا يحمل هذا دلالته الحاسمة فيما نحن بصدده؟ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما يقول: «أبو بكر سيِّدُنا وأعتق سيِّدَنا» يحكم على بلال بأن يصير سيِّداً للمسلمين كافة بما فيهم أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة الكبار.

والمماليك الذين كانوا يباعون ويشترون في الأسواق، أقاموا في مصر والشام والحجاز دولتين كبريتين، أسهمتا بشكل واسع، ليس في مصائر عالم الإسلام فحسب، بل في إبداعه الحضاري... والكثيرون من علماء الأمة وقادة الفكر فيها قدّموا من طبقة الموالي والعبيد وساهموا بكفاءاتهم المتميزة في بناء صرحها الحضاري، فيما هو معروف للقاصي والداني.

والأمثلة كثيرة، كثيرة جداً، وليس بمقدور أحد من الباحثين أن يجد عشر معشارها في أيّ دين أو مذهب أو نظام في العالم على امتداده.

في الهند ـ على سبيل المثال ـ كان المنبوذ يظل منبوذاً

مهما حاول، ومهما امتلك من طاقات وقدرات، أو قدّم من عمل... الأبواب موصدة أمام هذه الطبقة السفلى في المجتمع، رغم كونها تُعدّ بالملايين...

وفي روما كان كل غير الرومانيين محسوبين على طبقة الخدم والعبيد والأجراء...

هذان شاهدان ـ فحسب ـ من عمق زمني بعيد... أما في العصر الحديث، فيكفي أن نلقي نظرة على ما كان يجري في الولايات المتحدة الأمريكية حتى عهد قريب، وأن نقرأ كتاباً كـ (جذور) للكاتب الأمريكي الزنجي (ألكس هيلي) لكي نرى بأم أعيننا ما فعله البيض بالسود هناك مما تقشعر لهوله الأبدان.

وإلى زمن ليس ببعيد لم يكن بمقدور الزنجي في أمريكا أن يأكل في مطاعم البيض أو ينزل في فنادقهم... بل إن المفارقة التي تدعو للسخرية أن هذه التفرقة نقلت عدواها هناك حتى إلى الشيوعيين الأمريكان الذين كان أبيضهم يرفض أن يبيت أو يأكل في مكان واحد مع السود.

والقرآن الكريم قالها بوضوح وحسم منذ اللحظات الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال رسول الله ﷺ بالوضوح والحسم نفسه: **«لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى والعمل الصالح»... «أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب».**

ومن هذا المنطلق الذي يقف فيه الإنسان إلى جانب الإنسان على قدم المساواة، بغضّ النظر عن لونه وعرقه وجنسه وطبقته، وما يملكه من مال، بل حتى عن دينه وعقيدته... من هذا المنطلق تدفقت تقاليد حضارة فريدة منحت فرصها للجميع...

الحياة... والتعاليم

في رواية (سدهارتا) للروائي الألماني المعروف (هيرمان هيسه) إيغال في الخبرات الدينية والروحية في الساحة الهندية، ووقفة طويلة عند البوذية... ونلتقي بطل الرواية وهو ينتقد ذلك الانفصال المحزن بين التعاليم وبين التجربة الحية... التجربة المعيشة في واقع السلوك اليومي دقيقة بدقيقة، ولحظة بلحظة. وهو من أجل ذلك يُنهي انتماءه للبوذية باعتبارها سبيلاً للخلاص، ويتحول للبحث عن خبرة روحية أكثر إقناعاً... خبرة تتناغم فيها التعاليم مع التجربة... مع الحياة...

ونتذكر كيف أنه في الإسلام استطاع رسول الله ﷺ وصحابته الكرام (رضي الله عنهم) التحقق بأقصى درجات الوفاق بين التعليم والتجربة... بين الذات والسلوك... بين إعادة صياغة الحياة بالحياة وبين صياغتها بالتعاليم، إنها أعلى صيغ الحكمة على الإطلاق: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

حتى أسلوب تنزّل القرآن الكريم سوراً ومقاطعَ وآياتٍ، على فترات ومراحل، كان أحد أغراضه الأساسية، هو أن يتشرّب

المسلمون التعاليم القرآنية يوما بيوم ودقيقة بدقيقة... أن توغل في مكوناتهم الذاتية، وأن تصبح جزءاً من سلوكهم، وأن تتعاشق مع الحياة بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وهذه القراءة (على مكث) هي التي جعلت كل واحد منهم في نهاية الأمر «قرآناً يمشي على الأرض».

ليس ثمّة ازدواجية على الإطلاق بين التعليم والتجربة... بل إن ممارسة كهذه كان أصحابها يُدانون، بل قد تصل بهم في أقصى درجات حدتها إلى (النفاق)!

ونحن نقرأ ـ على سبيل المثال ـ ومن بين حشود من الآيات، هذا الوعيد القرآني لأولئك الذين انفصلت عندهم التجربة عن التعاليم، واكتفوا بالأخيرة، دون أن يبذلوا أيَّ جهد لتحويلها إلى ممارسة... إلى سلوك مشهود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

(كبر مقتاً)... وهل ثمّة أكثر تنديداً ووعيداً من المقت الكبير الذي يحيق بهؤلاء؟! ونحن نتابع ـ على سبيل المثال كذلك ـ ومن بين حشود من الأحاديث النبوية هذا التحذير: **«من لم تنهه صلاته وصيامه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً»**.

إنها الدعوة الملحّة ـ إذن ـ للتحقّق بالوفاق المرتجى بين القطبين: التعليم والتجربة، وبدون ذلك لن يكون المسلم مسلماً بحق، وبأيِّ معيار من المعايير.

هذا الوفاق الذي لا يتحقق عَرَضاً، ودونما بذل جهد حقيقي... أبداً... إنما هو ثمرة كفاح موصول مع (الأنا) ومع (الخارج)... كفاح ذو اتجاهين أحدهما عمقي يوغل في الداخل لملاحقة كل قوى الشد، وعناصر الانفصال في الذات الإنسانية، والآخر يمضي إلى الخارج لتذليل العوائق والصعاب، ومجابهة الضغوط والتحديات، وتعبيد الطريق للخبرة الإسلامية كي تصبح أمراً واقعاً وسلوكاً منظوراً.

ولشدة ما تنطوي عليه المحاولة من معاناة باهظة سمّاها الرسول ﷺ: (الجهاد الأكبر)، ودعا أتباعه إلى تمحيض أنفسهم لمطالبه وضروراته. بل إنه وضع لهم سلّماً ترتقي درجاته صوب القمة، ويجتاز قطاره محطات الإسلام، والإيمان، والتقوى، والإحسان... ها هنا حيث يكون التطابق الباهر والكامل بين التجربة والتعاليم، وحيث يقف المسلم قبالة الحضور الإلهي، متجرّداً للحق في أقصى درجات عطائه وتألّقه، معتقداً أن الله سبحانه يراه في كل خلجاته وسكناته، فيسعى لأن يمتثل لأمره سبحانه...

ها هنا ـ فعلاً ـ تتحول كلمات الله إلى سلوك منظور... إلى خبرة حيّة معاشة، تخترق العظم واللحم والأعصاب، وتتمركز في العقل والروح... ها هنا ـ فعلاً ـ يصير المسلم «قرآناً يمشي على الأرض».

ويُطلّ الإنسان من هذه القمة السامقة إلى كل المذاهب

والأديان الأخرى فيرى الفارق كبيراً كبيراً... بين دين يعيشه الإنسان من الداخل، ومذاهب وأديان تنفصل فيها الحياة عن التعاليم.

الوجهان معاً...

يلحظ المرء كيف أنه ما من صغيرة أو كبيرة في هذا الدين إلّا وهي تحمل الوجهين معاً: البعيد والقريب... المغيّب والمنظور... العقدي والمنفعي... الأخلاقي والمصلحي... الجمالي والضروري... وقس على ذلك سائر الثنائيات المتقابلة الأخرى على امتداد الحياة والخبرة البشرية..

خذ مثلاً تحريم الإسلام للغيبة... إنه موقف أخلاقي... هذه مسألة معروفة... ولكن إذا ما حاولنا تفحّص الجانب الآخر وقعنا على المنفعة... فكثيراً ما يحدث وأن تمارس الغيبة ضد هذا الشخص أو ذاك، وكثيراً ما يتسّرب إليه ما قيل عنه، وقد يفاجئ الآخرين بالحضور... فإذا بالعلاقات تتأزم، والوشائج تتقطع، والمصالح المتبادلة يصيبها التعثر والأذى.

وقس على ذلك مفردات من مثل التجسّس، واستراق النظر إلى الجيران، والرياء، وسائر الممارسات اللاأخلاقية، والتي تقود بالضرورة إلى وجهها المنفعي، فتلحق الأذى بالطرفين معاً...

فإذا ما وسّعنا المنظور، أدركنا كم ينطوي عليه هذا الدين

من حكمة وهو يحذّر ويكرّه وينهى ويحرّم شبكة من الممارسات التي تنطوي على البعدين معاً، من أجل إقامة حياة سعيدة هانئة آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان.

لنضرب مثلاً آخر على تحريم الإسلام للتبّرج... لتزيّن المرأة وتعطّرها للأجانب وهي تجتاز النوادي والأسواق والطرقات... إن ذلك سينعكس وبكل تأكيد إثارة للفتنة ونشراً للفساد، وإشاعة للتميّع، وإبعاداً عن الالتزام الديني... بل إنه يمضي ـ على المستوى العملي ـ إلى ما هو أبعد من ذلك، فيدمّر السوية النفسية للشباب الذين لا يجدون فرصتهم للزواج، ويصيبهم بلعنة الإحساس الملتهب بالكبت والحرمان.

من أجل ذلك ستعاقب المرأة التي يشمّ عطرها في الطرقات بأنها لن تشمّ رائحة الجنة على مسافة أربعين خريفاً... أو كما قال رسول الله ﷺ.

بل إن هذا الدين يوغل في تعامله مع الظواهر، في خطوطها الخلفية... في منابعها وبداياتها الأولى... لكي يوقفها ويستأصلها قبل أن تتسع وتتكاثر وتغدو تياراً يصعب التصدّي له... إنه يرفع شعار (الوقاية خير من العلاج)، رغم أنه قد أعدّ العلاج ليكون جاهزاً في اللحظة المناسبة.

إننا ـ على سبيل المثال ـ نقرأ في كتاب الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا

يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

ونحن نعرف جميعاً أن النظرة المتعمدة من الرجل للمرأة، ومن هذه للرجل قد تنزلق إلى ما هو أبعد، كما هو معروف في واقع الحياة، وقد تقود إلى ما لا تحمد عقباه، فيما هو معروف كذلك، وكلنا نتذكر قول الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلامٌ فكلام فموعد فلقاءُ...

وحتى لو توقفت النظرة عند حدودها السلبية التي لا تعقبها خطوة باتجاه الفعل، فإنها تلقي في نفس الناظر حزمة محرقة من التشهّي والإحساس بالحرمان، وتهيّج قوى الكبت المدمِّرة في أعماق نفسه...

والرجل الرجل... والمرأة المرأة... هما اللذان يقاومان ببطولة هذا الإغراء عند حافاته الأولى... ولسوف يكون مردود ذلك بمستوى القدرة على الامتناع: توحّداً وطمأنينة وتحصيناً للخبرة الروحية والتعبّدية من التضحّل والازدواج. ولهذا حدثنا رسول الله ﷺ كيف أن المسلم الذي يغض بصره يجد في نفسه ـ بالمقابل ـ حلاوة الإيمان...

وكثير من المسلمين في مراحل شبابهم جرّبوا الاثنتين معاً... وفي الحالين عرفوا كيف أن «التحذير» لم يقف عند حدوده

الأخلاقية أو الدينية الصرفة، وإنما تجاوز ذلك إلى الجانب العملي الواقعي من الحياة...

إنها هندسة الله سبحانه، المحكمة، لمسيرة المسلمين في هذا العالم، وشبكة (الترافيك لايت) المدهشة للعلاقات الاجتماعية، والتي تحمي الحركة في اتجاهاتها كافة من الفوضى والتخبّط والارتطام...

التشييع والرؤية الأخرى للحياة الدنيا

تجربة التشييع إلى القبر ذات خصوصية مؤثرة لمن يعرف كيف يتجاوز المنظور إلى ما وراءه... ولقوة الإيحاءات والمرئيات التي تقدمها؛ يدعو رسول الله ﷺ أتباعه إلى المشاركة في تشييع الجنائز، وزيارة القبور!

في تجربة التشييع عند القبر تبدو المدينة... والعمران... والأشياء... والحياة الدنيا نفسها حلماً عابراً... شيئاً مسطحاً غير حقيقي... لا عمق له ولا وجود... شيئاً سريع التبّدل والتغيّر والزوال.

إننا عندما نشاهد حلماً مهوّشاً، لا تستقر فيه الأشياء والخبرات على حال، ولا تتأكد عبره النسب والأبعاد... ثم نستيقظ فنجد أنفسنا قبالة صلابة الأشياء والمرئيات وثباتها، نكون قد انتقلنا من حالة مهوّشة، ضبابية، كثبانية التكوين، متحركة، متميعة، غير ثابتة... إلى حالة صلبة، ثابتة محددة الملامح والأبعاد، مستقرة النسب والمساحات.

أفلا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هي الحلم، والموت هو

اليقظة التي تنقلنا إلى الوضع الأكثر ثباتاً ودواماً بما لا يقبل قياساً؟

ولطالما تساءل المرء، وهو يقف على حافات القبور، في المسافة الضيقة الفاصلة بين الحياة والموت، بين الدنيا والآخرة... أتستحق الدنيا بوضعها هذا، بتهويشها، وتغيُّرها السريع، وزوالها المفاجئ... هذا التكالب الذي يتجاوز كل حد، والذي يسعى فيه الانسان إلى أن ينشب أظفاره فيها، رغم أن يديه ستسحبان بقوة من الكتلة، شاء أم أبى، ورغم أنه سينفى منها، بعد عشر سنوات أو عشرين، وربما بعد ساعة أو ساعتين، لكي يُلقى وحيداً، أعزلَ، في حفرة ضيقة، بعيداً عن المدينة والناس والحركة والحياة، بعد أن يكون قد عاش مدة من الزمن لا تتجاوز نصف عمر السلاحف وعشر عمر التماسيح؟

ولطالما تساءل كذلك: ماذا لو لم تكن هناك هذه النهاية لحياة كل إنسان؟ ماذا لو كتب له الخلود؟ أو في الأقل ماذا لو امتدت به الحياة إلى الألف سنة أو الألفين؟! ماذا سيحدث؟ وكيف سيكون فراقها مُرّاً كالعلقم، وكيف سيكون إنشاب الأظفار ليس في الكتل والأشياء فحسب، بل في لحوم وأرواح بعضنا بعضاً... وكيف ستغدو الحياة البشرية على امتدادها في الزمن شيئاً قاسياً صعباً مستحيلاً لا يستحق أن يعاش، ولا أن يتمناه إنسان...

ثم كيف كان الطاغوت سيتصرف في تعامله مع السلطة والناس والحياة، إذا كانت فترة ـ الثلاثين سنة والأربعين تدفعه

دفعاً إلى أبشع صيغ الأنانية والاستلاب والاستئثار وإلغاء الآخر... والطغيان؟ فكيف لو كانت فرصته ممتدة على مساحة ألف سنة أو ألفين؟

إنها حكمة الله سبحانه، وموازينه العادلة الدقيقة، تلك التي حددت فرصة الحياة الدنيا بستين أو سبعين عاماً في أفضل الأحوال... أليس سبحانه هو القائل في محكم كتابه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وهو جلّ في علاه أدرى بخلقه، ولهذا حدّد أعمارهم، وكتب عليهم الموت، وحصرهم في هذا المدى الزمني الضيّق... الضيّق جداً...

وإلّا استحالت الحياة الدنيا غابةً تعدو فيها الضواري البشرية ويمزق بعضها أجساد البعض الآخر بالمخالب والأنياب...

حياة لا تستحق أن تعاش على الإطلاق...

ما الذي حدث؟

يتألم الإنسان كثيرًا وهو يرى بعض التقاليد ومفردات السلوك اليومي الإسلامية متجذرة في ديار الغرب، بينما تكاد تتلاشى وتغيب في ديارنا؟

ليس بالضرورة لأن الغربيين تعلّموها من قاموسنا الإسلامي، وإنما هي عندهم وليدة تنامي الخبرة الاجتماعية التي تتحرك (أحياناً) على خط صاعد، وتصل بالجماعات والشعوب إلى اكتشاف (الحالات) و(الممارسات) السلوكية الأفضل والأحسن والأكثر ملاءمة لإنسانية الإنسان وحياته الاجتماعية.

في لندن... في باريس... في برلين... في مدريد... في كل عواصمهم ومدنهم وقراهم، تكاد ترى وأنت تتعامل معهم البسمة نفسها وهي تغمر الوجوه، والكلمة الطيبة ذاتها معلقة على الشفاه، والرغبة العفوية غير المصطنعة في إماطة الأذى عن طريق الناس...

أليس رسولنا (عليه أفضل الصلاة والسلام) من علّمنا أن **«الكلمة الطيبة صدقة»**، وأن تبسمنا في وجوه الآخرين صدقة؟

أليس هو الذي طلب منا، بل أمرنا، أن نميط الأذى عن طريق الناس، مادياً كان هذا الأذى أم معنويا؟

والقرآن الكريم، ألم يأمرنا أن نردّ التحية بأحسن منها، أو أن نعيدها كما وُجهت إلينا على أقل تقدير؟

ما الذي يحدث في ديارنا ونحن نتعامل مع بعضنا في الدوائر والأسواق والأماكن العامة والمؤسسات، فلا نكاد نتلقى كلمة طيبة، أو بسمة حانية، أو رغبة جادة في إماطة الأذى عن طريق بعضنا والبعض الآخر... أيّا كان هذا الأذى؟

وأين هو ردّ التحية بأحسن منها، أو حتى ردّها كما هي؟

تقول للموظف أو البائع، وأنت تتسلّم منه المعاملة أو تسلّمه النقود:

«شكراً» فلا يرد عليك... ويا ليته يقف عند هذا، بل هو يمضي إلى أبعد من ذلك فيرمي بالمعاملة أو بقية النقود في وجهك وكأنها مِنّة يمنّ بها عليك...

تبتسم بمودة في وجه هذا الموظف أو البائع أو ذاك، فلا يبادلك الابتسام، بل إنه يمضي إلى أبعد من ذلك فيقطّب في وجهك وملامح الغضب والازدراء تكسو وجهه...

تسلّم بحرارة على هذا الشاب أو تلك المجموعة من الشبان، فيردّون عليك همساً من أطراف أنوفهم، وقد لا يردّون أساساً، وأنت لا تريد سوى أن تسترجع تحيتك كما هي، فلا تحظى بما تريد...

حياة متيبّسة لا تطاق... ومشاعر نضب فيها كل ما هو عذب ورقيق... ونفوس طغى عليها الجفاء... ووجوه لم تعد ترى فيها ذرة من حنان...

ما هكذا أرادها لنا رسول الله ﷺ...

ومن عجب أن بعض هؤلاء الذين نتحدث عنهم يصلي ويصوم ولا تكاد تفوته صلاة في مسجد... فأين إذن ذهب تأثير صلاتهم وصيامهم في تهذيب نفوسهم، وترقيق عواطفهم، وصياغة مفردات سلوكهم؟

قد يقول البعض إن الزمن الصعب الذي اجتازه المسلمون عبر القرون أو العقود الأخيرة بوجه الخصوص، استأصل من نفوسهم الكثير، واستلب من مفردات سلوكهم الكثير.. فقد يكونون معذورين في تصرفاتهم تلك!

والردّ على هذا الادّعاء ليس صعباً أو عسير المنال... فها هي ذي الشعوب الغربية تجتاز عبر الحربين العالميتين الأولى والثانية متاعب وأهوالاً لا تقل عما ابتلينا به واجتزناه... ولكنهم لم يفقدوا الكلمة الطيبة والبسمة الحانية وردّ التحية بأفضل منها...

لا بل أن كلمة (آسف) تكاد لا تغادر شفاههم حتى وهم يتلقون أخطاء الآخرين، وربما تجاوزاتهم وعدوانهم...

حول دور الأخلاق في النهوض والانهيار

على تغاير الأماكن والأزمان، وتبدّل الدول والحضارات، تظلّ القيم الخلقية نقطة الارتكاز في مسيرة الأمم والشعوب. فبالتمسك بها يكون التقدم والصعود، وبالتنازل عنها والتفلت منها يكون الانهيار والسقوط.

ولقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣] ووصف رسوله الكريم بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]، مؤكداً بذلك على أن أحد العوامل الأساسية لنجاح الدعوة الإسلامية وتمكّنها من تحقيق أهدافها الكبرى إنما كان بما تميّز به نبينا العظيم ﷺ من خلق عالٍ أريد لهذه الأمة قيادات وشعوباً أن تسير على هديه فيه لكي تكون سيدة في هذا العالم.

ولعل واحداً من أهم عوامل انهيارنا الحضاري عبر القرون الأخيرة، هو ضعف، وربما غياب، الوازع الخلقي الذي هو أساس يقظة الضمير وفاعلية الأمة، وقدرتها على العطاء والإبداع.

ومن قبل كان الشاعر المعروف (أحمد شوقي) قد جمع هذه المعاني في بيت من الشعر تناقلته الأجيال بما انطوى عليه من معانٍ ودلالات:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن الكثيرين يذكرون ـ على سبيل المثال ـ كيف كان انهيار فرنسا السريع على يد القوات الألمانية في بداية الحرب العالمية الثانية، بسبب من تفكك القيم الخلقية هناك.

ويذكرون ـ كذلك ـ كيف أن زعماء الدول الكبرى في ستينيات القرن الماضي من مثل ـ (كندي) في أمريكا و(خروتشوف) في الاتحاد السوفياتي السابق، حذروا شعوبهم من الانجراف وراء الملذات وتجاوز مطالب القيم الأخلاقية، وأن ذلك قد يكون عاملاً ذا تأثير بالغ على مصائر الدولتين. ولقد جاءت الأحداث لكي تعزز مخاوف الرئيسين المذكورين.

إن الوقائع التي تؤكد دور الأخلاق في نهضة الأمم أو دمارها كثيرة، وكتابات المفكرين ودعاة الإصلاح كثيرة هي الأخرى.

وقبل هذا وذاك تأكيدات كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ على خطورة هذه المسألة.

.إن القيم الخلقية هي التي تنظم سلوك الأفراد والجماعات، وتضع مؤشراته وضوابطه، وتلعب دوراً كبيرا في حركة الأمم ونموّها، وأنه في حالة ضياع هذه القيم فستكون هناك الفوضى، وسيعمّ الاضطراب سائر العلاقات، فيكون التفكك والدمار.

إنها أشبه بعلامات المرور الكهربائية (الترافيك لايت) التي تنظم السير في شوارع المدن الكبرى، وبالجاذبية التي تنظم حركة الكواكب والنجوم في ساحات الكون، فلولا هذه وتلك لحدث الفوضى والارتطام سواء في الشوارع والمدن، أم في بنية الكون.

إن هناك قيماً كثيرة نعرفها جميعاً لأننا نتعامل معها سلباً وإيجاباً في كل يوم، بل في كل دقيقة، في بيوتنا ومدارسنا وأسواقنا ومؤسساتنا وعلاقاتنا كافة، مثل الصدق والأمانة والوفاء والشجاعة والإخلاص، والإحساس بالمسؤولية، ويقظة الضمير، والمروءة والإيثار واحترام الكبير والعطف على الصغير، ومراعاة حقوق الجار، وكفالة الفقراء والمستضعفين، والجد في العمل، والالتزام بالمواعيد، وعدم نكث العهود، والمحبة والتضحية... الخ...

لنتصور مجتمعاً من المجتمعات التزم بهذه القيم في حياته اليومية، ونشاطه العملي، كيف سيتقدم في مضمار الرقي الحضاري، وكيف أنه بتخلّيه عنها سيتأخر بلا شك، وسيدع المجال للأمم والجماعات الأكثر التزاماً بهذه القيم لكي تسبقه وتتفوّق عليه.

وإذا نظرنا إلى التاريخ، فإننا نستطيع أن نفسّر انهيار وزوال الكثير من الدول والإمبراطوريات والحضارات بهذا العامل الأخلاقي تحديداً...

حقا إن الشاعر (أحمد شوقي) لخّص ببيته ذاك الكثير مما

يمكن أن يقال في علاقة منظومة القيم الخلقية بقوة الأمم وضعفها، بارتفاعها وسقوطها على السواء...

وهكذا يكون شعر الحكمة مدرسة يمكن أن نتعلم منها الكثير وصدق رسول الله ﷺ القائل: «**إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة**»...

الإنسان في قوته وضعفه

المنظور الإسلامي للإنسان يتميز بالواقعية... إنه يتعامل معه في حالتيّ القوة والضعف... ويؤكد وجود الحالتين معاً في الكينونة البشرية، فيدفع الأولى إلى المزيد من التألق، ويأخذ بيد الثانية صوب الصحة والعافية.

منذ لحظات الخلق الأولى أضيفت نفخة الروح العلوية إلى كتلة الطين السفلية، فأصبح الإنسان مزيجاً من التوق والشد... الصعود والهبوط... التسامي والارتكاس... اليقظة والغفلة... والتحرّر والاعتقال.

منذ لحظات الخلق الأولى شُكِّل الإنسان في أحسن تقويم، وصدر الأمر للملائكة بالسجود له، تشريفاً وتكريماً، وحُمل في البر والبحر، ورُزق من الطيبات، وفضل على كثير من الخلق تفضيلاً... وكان ينطوي في الوقت نفسه على العجلة والضعف والاستعداد للخطيئة، والاستجابة لإغواء الشيطان.

منذ لحظات الخلق الأولى يُعلّم آدم الأسماء كلها... أي يعطى ـ بعبارة أخرى ـ مفاتيح المعرفة التي هي أساس الفعل

الحضاري، وهو ـ مع ذلك ـ يحمل الاستعداد للقتل وسفك الدم، فيما توجّست منه الملائكة خيفة.

والقرآن الكريم لا يبخل علينا بتسليط أضوائه الكاشفة على خفايا الإنسان، ومكوناته، ومنازعه، وعناصر القوة والضعف فيه، لأنه يتابع ـ بواقعية ـ ملامح وبصمات هذا الكائن الفريد الذي هو من خلق الله سبحانه الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

المذاهب الوضعية والأديان المحرّفة تصعد بالإنسان إلى القمة أو تهوي به إلى الحضيض، وهي في كلتا الحالتين تمارس انحيازاً غير مبرّر لهذا الاتجاه أو ذاك، وتتجاوز الرؤية الوسطية والواقعية التي نلتقيها في كتاب الله...

السوبرمان، والجنتلمان، والكائن الأعلى، والإنسان المحاط بالخطيئة، والإنسان حيوان اجتماعي، وغيرها من التقاليع التي ضلّت الطريق، وتعاملت مع هذا الكائن الفريد برؤية أحادية عاجزة عن الإحاطة بجوانب الكينونة البشرية كافة...

اليهودية ترفع شعبها فوق مستوى البشرية بادعاء مبدأ (شعب الله المختار)، والمسيحية تطوّق الإنسان بالخطيئة الأبدية التي لا يخلصه منها ـ حسب ادعائها ـ سوى صلب السيد المسيح عليه السلام... دون أن يبذل الإنسان من جهته أي جهد للخلاص... والمذاهب الوضعية تؤلّه الإنسان حيناً، وتسحقه حيناً آخر... تغيّبه في الجماعة حيناً، وتمكّنه من رقابها حيناً آخر...

ومنذ اللحظات الأولى أعلن الإسلام في كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ ما ينطوي عليه الإنسان من قدرة على التسامي والصعود، ومن انقياد للإغواء والشهوات، وقال رسول الله ﷺ: **«كل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون»**. وأعلن القرآن الكريم مراراً وتكراراً عن أن الإنسان هو أسير الآثام واللمم والأخطاء... وأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن يقدر على تجاوز الشدّ والتهيّؤ للصعود...

إن الإسلام ـ بإيجاز شديد ـ دعوة للتغلب على العوائق، وبذل الجهد لمجابهة عوامل الشد... مع الاعتراف بثقلها...

والإنسان في المنظور الإسلامي مشروع مفتوح للتحقق الذاتي عبر رحلة العمر المتطاولة، والدائبة، والطموحة ما بين محطات الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان... تلك المحطة القمة التي يملك فيها الإنسان مطلق إرادته في السيطرة على نوازعه وصياغة مصيره... تماماً كما يريد الله ورسوله أن يكون...

وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً: الأعمال التاريخية

أ ــ محور: المنهج والفلسفة:

١ ــ التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢ ــ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ــ ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ــ في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ــ المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ــ دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي ـ عمان).

٧ ــ المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم ـ بيروت).

٨ ـ التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).

٩ ـ مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

١٠ ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

ب ـ محور: السيرة والتراجم:

١١ ـ دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس ـ بيروت).

١٢ ـ كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

١٣ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم ـ بيروت).

ج ـ محور: البحوث والدراسات:

١٦ ـ دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

١٩ ـ الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعة واحدة) (دار الفكر ـ دمشق).

٢٠ ـ خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢١ ـ محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

د ـ محور: قضايا في التاريخ المعاصر:

٢٢ ـ ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٣ ـ لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٤ ـ أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ أولى ملاحم القرن (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

٢٨ ـ مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعة واحدة) (دار الفكر ـ دمشق).

٢٩ ـ أمريكا مرةً أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ثانياً: الأعمال الفكرية

أ ـ محور: المنظور الإسلامي للمعرفة:

٣٠ ـ أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣١ ـ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٢ ـ العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٣ ـ مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٤ ـ تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

ب ـ محور: المنظور الغربي للإسلام:

٣٥ ـ قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٦ ـ القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٣٧ ـ المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٣٨ ـ الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣٩ ـ نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس ـ بيروت).

٤٠ ـ غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

ج ـ محور: البحوث والدراسات:

٤١ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٤٢ ـ حوار في المعمار الكوني: وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٣ ـ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٤ ـ مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٥ ـ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

٤٦ ـ كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤٧ ـ الله أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٤٨ ـ رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (قيد النشر).

٤٩ ـ محاضرات إسلامية (قيد النشر).

٥٠ ـ أخطاء في حياتنا الإسلامية (قيد النشر).

٥١ ـ دراسات قرآنية (قيد النشر).

د ـ محور: المقالات الإسلامية:

٥٢ ـ آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٥٣ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥٤ ـ في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥٥ ـ في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٥٦ ـ من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٥٧ ـ العالم ينتظر البديل (قيد النشر).

٥٨ ـ آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).

٥٩ ـ أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

ثالثاً: الأعمال الأدبية

أ ـ محور: الدراسات الأدبية والفنية:

٦٠ ـ الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦١ ـ فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٢ ـ الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٣ ـ قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر ـ القاهرة).

ب ـ محور: التنظير:

٦٤ ـ في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٥ ـ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٦ ـ حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٧ ـ متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦٨ ـ من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

ج ــ محور: النقد التطبيقي:

٦٩ ـ محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٠ ـ في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧١ ـ في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

د ــ محور: الإبداع:

أ ـ المسرحيات:

٧٢ ـ المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٣ ـ الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٤ ـ المغول (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٥ ـ الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٦ ـ التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٧ ـ معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٨ ـ خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧٩ ـ العبور (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ الروايات:

٨٠ ـ الاعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨١ ـ السيف والكلمة (طبعة واحدة) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

٨٢ ـ مذكرات جندي في جيش الرسول (ﷺ) (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٣ ـ القصص:

٨٣ ـ كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨٤ ـ رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ الشعر:

٨٥ ـ جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨٦ ـ ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ أدب الرحلات:

٨٧ ـ من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ أدب الحوار:

٨٨ ـ ريبورتاج: حوار في الهموم الإسلامية (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

٨٩ ـ الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٩٠ ـ لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٧ ـ السيرة الذاتية:

٩١ ـ السيرة الذاتية:

لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (قيد النشر).

٩٢ ـ من مذكرات طالب جامعي (قيد النشر).

الفهرس

أحاديث نبويــة تطلّ على العصر

وأي واحد من أحاديثك الشريفة لايطلّ على العصر يارسول الله ؟ إنها برؤيتها النبوية الثاقبة تجتاز الأماكن والعصور لكي تطلّ بتعاليمها التي تعرف كيف تتعامل مع الإنسان وكيف تبنيه، على كل زمن وكل مكان ... ويخسأ أولئك الذين يسمون أنفسهم (بالتاريخانيين) الذين يسعون إلى اعتقال كلمات الله وتعاليم رسوله ﷺ في حيّز التاريخ ! فهاهي ذي أحاديثك تقطع ألسنتهم وتمضي لكي تدل الحيارى والضائعين على الصراط، الذي تتفرق دونه، وتميل، وتعوج، وتتساقط السبل البشرية الضالة التي أسرت نفسها في حيّز الزمن والمكان، أي في الجغرافيا والتاريخ ... ومضى التاريخ بإرادة الله سبحانه وتعالى، لكي يطوي كل أضاليلهم رافعاً شعار ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

هذه جملة من الأحاديث النبوية الموثقة، كما أخرجها المحدث الكبير (البخاري) في صحيحه ... أختيرت من بين العشرات والمئات والألوف لكي تؤكد هذا الذي ذهبنا إليه ... إنها خطاب مؤثر موجه للإنسان في كل زمن ومكان، من أجل أن يفيئ إلى خيمة الله، ويحيا الحياة المتوازنة السعيدة، المتوحدة، التي أرادها له هذا الدين، والتي بدونها لن تكون سوى التعاسة والنكد والتمزق والشقاق.

ISBN 978-614-415-306-2
9 786144 153062

www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com